محـــاضـــرات مـقيـــاس

الدراسات المؤسسة لعلم الاجتماع

(السنة 3 علم الاجتماع)

- المحاضرة الأولي : نشأة علم الاجتماع

- المحاضرة الثانية : مدرسة شيكاغو

- المحاضرة الثالثة : أشهر الدراسات المؤسسة لعلم الاجتماع

نشأة علم الاجتماع

مصطلح علم الاجتماع ظهر لأول مرة سنة 1839 من خلال فقرة من الدرس 47 من دروس في الفلسفة الوضعية لاوجست كونت.

في البداية سمى كونت هذا العلم الجديد بالفيزياء الاجتماعية. ولكن قبل اشهر كان أحد العلماء البلجيكيين Adolphe Quetelet رياضي وعالم فلك استعمل هو ايضا مصطلح الفيزياء الاجتماعية لتطبيقها على الدراسة الإحصائية للمجتمع الإنساني.

عندما علم كونت بذلك تراجع عن هذه التسمية وبحث عن أسم جديد واسماه sociologie وقد اشتقها من كلمتين: الأولي لاتينية socius (societe) وتعني المجتمع، والثانية logos وهي كلمة اغريقية وتعني العلم (savoir).

سنة 1839 عندما اخترع كونت sociologie علم الاجتماع لم يكن في ذلك الوقت شخصية علمية معروفة وقد كان عمره 41 سنة.

- **ولادة علم الاجتماع :**

علم الاجتماع ولد في خضم تحولات عميقة وجذرية في مرحلة الانتقال من مجتمع قديم إلى مجتمع جديد كان في مفترق الطرق.

ثلاث ثورات أساسية ساهمت مساهمة كبري في نشوءه.

- الثورة السياسية (الثورة الفرنسية سنة 1789).
- الثورة الاقتصادية والصناعية.
- الثورة الثقافية (انتصار العقلانية والعلم والوضعية، باختصار الانتقال من التقليد إلى الحداثة.

أذن علم الاجتماع كان ظهوره نتيجة لشروط وظروف تاريخية خاصة ونتيجة لمجموعة من المتغيرات الاجتماعية العميقة، الثورة التكنولوجية، توسع الرأسمالية، التحضر، ولادة القومية، الديمقراطية، تغير في القيم والمعتقدات. كل تاريخ علم الاجتماع هو انعكاس لهذه التغيرات الاجتماعية. بمعنى آخر أن ولادة علم الاجتماع كان من رحم الازمة التي عرفتها وعاشتها المجتمعات الاوروبية وخاصة ما احدثه ظهور الصناعة والتصنيع في ذلك الوقت.

لقد كانت العلوم الاجتماعية المعروفة حتى ذلك الوقت: التاريخ، الاقتصاد، السياسة ، عاجزة عن إيجاد حلول لهذه الظواهر والمشكلات الجديدة. وهكذا جاء علم الاجتماع أو هذا العلم الجديد كأمل لأيجاد حلول للمشكلات الناشئة ولحل أزمات المجتمع الجديد. ففلاح القرى

تدركمكانة لعامل المدن، (عنف، انحراف، الفوضى ....) وهذا ما بعث الخوف في البرجوازيين، إذن ما العمل ؟

- **سان سيمون** متأثرا بنزعة إنسانية اجاب : – يجب تغيير كل شئ.

أولا : يجب تأميم كل شئ حتى يصبح كل شئ ملك للجميع حسب طاقة كل واحد.

ثانيا: يجب تبني الاخلاق حتى تنتصر العدالة والمساواة.

- **كونت** مؤسس علم الاجتماع والوضعية أكد من جانبه أن العلم وحدة يستطيع تحقيق النظام داخل المجتمع وهذا باعتبار العلم نسق يخضع لقوانين علمية ومبادئ أساسية حينما تعرف تسمح بتحقيق النظام الاجتماعي. كان كونت يسعي إلى الإجابة على اسئلة فلسفية كبرى: كيف نعرف العالم ؟ ما هو الإنسان ؟ ما هو المجتمع ؟ كيف نعيش سويا ؟
- **ماركس** ومن خلال مفاهيمه الأساسية (الأغتراب، رأس المال، الصراع الطبقي) رأي بأن الثورة من طرف البروليتاريا هي الحل الجذري وبعد هذه الثورة لن تكون هناك ثورة أخرى.
- **سبنسر** بالنسبة له المجتمع ليس محتاجا لأنبياء جدد لأنه يتطور حسب منطق خاص به، وبالكشف عن القوانين العالمية، والتطور العفوي وبوسائل المجتمع الخاص به، عندما يحدث هذا فإن تغير المجتمع هو في محصلة الأمر عملية نضج، مثله مثل الفاكهة التي تسقط من غصن الشجرة حال نضوجها، وقد كان سبنسر يقول ويردد: لا اصلاح، لا ثورة ، المجتمع في ذاته ولذاته.
- **دوركايم** آب علم الاجتماع الفرنسي وأول من فتح الطريق للاكتشاف الاجتماعي. كان منشغلا بما اسماه "الانوميا" (Anomie) التي تعني فقدان المعايير والقيم التي ترجع إلى ذرية المجتمع، دوركايم رأي في علم الاجتماع وسيلة لفهم اكثر وضبط هذا التهديد للحد من آثاره.

مهما كانت الفترة والاختلافات الايديولوجية، فإن الأسئلة الكثيرة التي يعالجها علم الاجتماع ليست بكثيرة ويمكن حصرها في النقاط التالية :–

1. **الرباط الاجتماعي والعلاقة الاجتماعية**

- كيف يستمر المجتمع؟
- كيف يمكن للمجتمعات الإنسانية أن تقع في العنف المعمم ؟
- اولا تتفجر إلى اجزاء او جماعات جزئية ؟
- كيف يحافظ المجتمع على نفسه ؟

- هل توجد قوانين عالمية للحياة الجماعية ؟

2. الحداثة وطبيعتها :-

لقد كان علم الاجتماع بالنسبة للرواد الأوائل هو علم الحداثة (سان سيمون، ماكس فيبر ، ماركس، باريتو ..) وحتى حاليا فإن هذا المشروع مازال مستمرا.

بداية من تحليل المجتمع الاستهلاكي (بودريـــار، مـــورين J.Baudrillard E.Morin) مرورا بمصطلح مجتمع ما بعد الصناعي (دانيل بيـــل وآلان تـــورين Daniel Bell, Alain Tourain) وصول إلى مجتمع الشبكات لمانويل كاستلز Manuel Castellz

3. الهيمنة والقوة :-

- لماذا البشر يقبلون النظام الاجتماعي.
- لماذا يترك البعض الآخر يمارسون السلطة والقوة مكانهم.
- كيف يتحقق النظام السياسي.

4. الفعل الاجتماعي:-

ماهية آثار الفعل الإنساني؟ من يوجه فعل الأفراد؟

فمنذ عودة الفاعل في سنوات الثمانينات فإن وجهة نظر دوركايم الخاصة بالفعل (الـــذي هـــو نتيجة لقوى اجتماعية تتجاوز الفرد) تم تجاوزها من طرف اطروحـــات جديـــدة تضـــع فـــي مقدمتها حرية الفاعل أو الافراد في اختيارهم للفعل.

الفردوية المنهجية (بودون R.Boudon) التحليل الاستراتيجي (ميشيل كروزيه M.Crosier) التفاعليـــة الرمزيـــة (بيكـــر Howard Becker) الانثوميثودولـــوجي (جارفنكـــل Harold Garfinkel)

5. العقلانية واللاعقلانية:-

لقد فتح فيبر هذا المجال من خلال تحليله لعملية العقلانية في المجتمع الحـــديث وتصـــنيفه لاشكال العقلانية.

نظرية الاختيار العقلاني التي دخلت إلى مجال علم الاجتماع قادمة من المجـــال الاقتصـــادي (الاشخاص لا يتصرفون إلا من خلال مصطلحات حساب الكلفة والفائدة)

- ثم العقلانية المحدودة التي ترجع إلى (Herbert Simon) وتم تبنيها مـــن طـــرف و (E. Freidberg N.Crosier)

6. الابنية الاجتماعية :-

- ما هي هندسة المجتمعات ؟

- كيف ينظم الافراد (الماركسية البنية التحتية (الاقتصـــاد، الانتـــاج ، الملكيـــة) الوظيفية. (المجتمع نسق منظم ومستقر له اربعة وظائف اساسية : التكيـــف – متابعة الهدف – التكامل – الحفاظ على القيم)

7. التغير الاجتماعي :-

- كيف تتغير المجتمعات

(كونت : الاستاتيكا الاجتماعية ، الديناميكا الاجتماعية في التراث الولسيولوجي هنـــاك اربـــع اتجاهات للتغير الاجتماعي (الوظيفة، التطورية، نظريات الصراع، التفاعلية)
هناك بعض الباحثين الذين ركزوا على عامل محدد لحصول التغير الاجتماعي
دانيل بيل : اهمية الاختراعات التكنولوجية التي تعتبر كمحرك للتغير الاجتماعي.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ الطلب يزداد علـــى علـــم الاجتمـــاع والبـــاحثين يزدادون يوما بعد يوم، طلب الخبرة السوسيولوجية بدأ يزداد بشـــدة وتهيكـــل بشـــكل جيـــد، منظمات للبحث، تقارير تطلب من طرف علماء الاجتماع في مجـــالات الحيـــاة الاجتماعيـــة المختلفة (صحة، عمل، تحضر، تربية، تسير الموارد البشرية، اتصال) كـــل هـــذه الوظـــائف الجديدة والمتولدة نتيجة لتطور المجتمع الإنساني ونتيجة للتطور التكنولوجي والحدائي، تحتاج إلى تكوين وثقافة سوسيولوجية خاصة. أن علم الاجتماع حاليا لا غنى عنه لكل المجتمعـــات، فهو العلم الكفيل بايجاد اجابات للأسئلة التي تطرح هنا وهناك، وفهم وتفسير للفعل الاجتماعي وللمشكلات الاجتماعية الناتجة عن الظواهر المتولده والمصاحبة لتطور المجتمع.
ان التراكمات المعرفية والنظرية التي حققها علم الاجتماع عبر مسيرته القصيرة قادرة علـــى اعطاءنا صورة واضحة عن مشاكلنا اليومية وحلول لمشكلاتنا الاجتماعية.

مخطط يوضح تطور علم الاجتماع من خلال رواده ومدارسه

انجلترا	المانيا		فرنسا
الـــــــرواد			
هـ – سبنسر 1903–1830	كارل ماركس 1883–1818		كونت 1798–1857 أ.دي توكفيل 1859–1805
المـــــؤسسين			
ايطاليا بارينو 1983–1848 موسكوا 1941–1858	الولايات المتحدة كولي 1889–1864 هـ – ميد 1932–1863		فرنسا تارد 1904–1843 وورمس 1926–1869 لوبون 1931–1841
	مدرسة شيكاغو سمايل Smail 1864-1926 توماس 1944–1863 بارك 1944–1864 برجر 1966–1886	المدرسة الالمانية فيبر 1920–1864 زيمل 1918–1858 تونيز 1936–1855 زمبارت 1941–1863 ترولتش 1993–1865	المدرسة الدوركالمية دوركايم 1917–1858 موس 1950–1872 هاليفاك 1945–1877 بوفلي 1940–1870

الفصل الأول:
مدرسة شيكاغو كنظرية في السوسيولوجية الحضرية

تأسست جامعة شيكاغو بين سنتي 1890 و1892 بتمويل من رجل الأعمال الثري John D. Rockefeller صاحب شركة خاصة للمحروقات، دون أن يفرض أية سلطة في تدبيرها مقابل ذلك. وقد كانت شعبة السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا بها مركزا رائعا للبحث بين سنتي 1910 و1930، حيث كانت نتائج الدراسات التي يقوم بها أساتذة هذه الشعبة تنشر من طرف جامعة شيكاغو نفسها (University of Chicago Press) وكذا عبر مجلة «السوسيولوجيا الأمريكية» التي أسست منذ سنة 1895، أي سنة واحدة قبل تأسيس مجلة «السنة السوسيولوجية» من طرف دوركايم.

1. الأصول المرجعية لمدرسة شيكاغو

عرفت جامعة شيكاغو منذ ميلادها العديد من المدارس السوسيولوجية التي اهتمت بشتى أنواع الظواهر الاجتماعية، من أهمها الظاهرة الحضرية، التي حضيت باهتمام الباحثين خلال عقد العشرينات من القرن 20 م. وقد تأثرت هذه المدرسة ببعض رواد السوسيولوجيا الكلاسيكية وكذا بعض العلوم الطبيعية.

دوركايم

تطرق دوركايم للظاهرة الحضرية من خلال اهتمامه بمسألة تقسيم العمل الاجتماعي، حيث فسير الانتقال من مجتمعات ذات تظامن آلي إلى مجتمعات ذات تضامن عضوي عبر الكثافة الديموغرافية التي تنتج عنها كثافة أخلاقية وتقسيما معقدا للعمل، فما يميز القرية عن المدينة، عند دوركايم، هو سيادة التضامن الآلي الذي يتميز بالتشابه على كافة المستويات، عكس المدينة التي يسود فيها التضامن العضوي القائم بين أفرادها المختلفون مع بعضهم البعض.

ستأثر هذه الأراء لاحقا في السوسيولوجية الحضرية لذا رواد مدرسة شيكاغو، غير أن نظرة دوركايم ستختلف عن نظرة هؤلاء للمدينة، فهو يعتبر المدينة صورة نموذجية للتقدم الإنساني والحداثة، حيث يتحقق التضامن العضوي الذي يفضي إلى مزيد من التقدم، في حين ينظر بعض رواد مدرسة شيكاغو إلى المدينة نظرة تشائمية علىاعتبارها أنها مجال لانتشار مختلف الأمراض و الانحرافات الاجتماعية.

ماكس فيبر

تعود الأصول المرجعية لهذه المدرسة كذلك إلى ماكس فيبر، الذي اهتم بالظاهرة الحضرية، خاصة في كتابه «المدينة»، حيث بنى تصوره للمدينة من منظور تاريخي، أي بالعودة إلى مدن مصر القديمة والمدن الرومانية، لكنه يرى بأن المدينة الأوروبية هي قمة ما بلغته العقلنة الحضرية من ترشيد وبيروقراطية. ومايميز المدينة عنده هو انتشار كثافة سكانية كبيرة في مجال ضيق، إضافة إلى كون سكانها لا يعرفون بعضهم البعض معرفة شخصية.

بمعنى أن ماكس فيبر يأخذ بعين الاعتبار دينامية العلاقات الاجتماعية والأوضاع الثقافية في المدينة، وليس حجم السكان فقط. كما أنه حدد أبعاد المدينة في بعدين أساسيين: البعد الاقتصادي بما أنها تجمع سكاني وسوق تجارية دائمة، ثم البعد السياسي/الإداري

على اعتبار أن هذه الأنشطة الاقتصادية لا يمكن تسييرها على نحو جيد إلا إذا توفر نمط معين من التنظيم الإداري والقانوني، الأمر الذي يجعل المدينة مركزا إداريا وتجمعا لمجموعة من الوظائف والمؤسسات السياسية المشكلة للحكم المركزي.

جورج سيمل

تأثر رواد مدرسة شيكاغو أيضا بالسوسيولوجي الألماني جورج سيمل، الذي اهتم بالظاهرة الحضرية مع بداية القرن 20. ففي مقال له حول «المتروبول والحياة الذهنية» حاول سيمل تحليل العلاقة بين الثقافة والمجال في المدن الكبرى بألمانيا كبرلين، إذ اعتبر المدن ظاهرة جديدة ارتبطت بالتحولات الكبرى لأوروربا الغربية على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي. فقد أدى الانتقال الديموغرافي والتوسع الحضري إلى الانتقال من الأشكال التقليدية للمجتمع المحلي إلى الأشكال الحديثة للمجتمع الحضري المعقد والمركب، كما أن توسع المدن ساهم في انتشار مظاهر الاستلاب والعزلة والعلاقات غير المشخصة التي تعتمد على الفردانية واللامبالاة بالآخرين، وهذه الأمور هي التي ستهتم بها مدرسة شيكاغو فيما بعد.

العلوم الطبيعية

تأثرت مدرسة شيكاغو كذلك ببعض العلوم الطبيعية كالإيكولوجيا الحيوانية والنباتية، التي وفرت لرواد هذه المدرسة بعض المفاهيم الخاصة بتشخيص العلاقات بين المجموعات الاجتماعية والتحولات التي عرفها المجال الحضري، نجد من بين هذه المفاهيم مفهوم الاجتياح والتعاقب، بمعنى تعويض ساكنة حي حضري بأخرى. أو مفهوم التعايش الذي يعني تواجد ساكنة مختلفة بحي واحد، ومفهوم الهيمنة الذي يعني تأثير نمط العيش في المركز على أنماط العيش في الهوامش، إضافة إلى مفاهيم أخرى كالمنافسة والصراع والتشابه. فعبر هذه المفاهيم سيعمل وليام توماس وروبير باك وبيرجس وماكينزي على

تحليل النمو الحضري المبني أساسا على العديد من الظواهر القابلة للملاحظة كالتنافس حول استعمال الأرض بالوسط الحضري مثلا.

2. مناهج البحث عند مدرسة شيكاغو

تميزت أعمال هذه المدرسة بمقاربتها المنهجية الميدانية العميقة، حيث ركز روادها على الأبحاث الاجتماعية والإحصائيات، وكذا على المناهج التجريبية كالملاحظة الموضوعية للولقع الاجتماعي والوثائق الشخصية والرسمية، وقد اعتبرت الدراسة التي أنجزها توماس وزنانسكي حول «الفلاح البولوني» أول دراسة سوسيولوجية تعتمد هذا المنهج، الأمر الذي شكل قطيعة مع تقاليد البحث السابقة، أي الانتقال من بحث سوسيولوجي مكتبي إلى بحث سوسيولوجي ميداني يعتمد على السيرة الذاتية والمراسلات الشخصية والجرائد والشهادات. نفس الشيء بالنسبة لروبير بارك الذي شكل قاعدة معطيات من الوثائق حول المدينة ووضعها رهن إشارة الطلبة الراغبين في دراسة ظواهرها الاجتماعية.

كان هدفهم من ذلك هو إنتاج معرفة مفيدة يستعين بها أصحاب القرار في بناء سياسات للمراقبة الاجتماعية والإصلاح، إذ ركزوا اهتمامهم على وصف وتحليل وفهم التحولات الاجتماعية الكبيرة التي رافقت النمو الكبير الذي عرفته المدن الأمريكية، خاصة مدينة شيكاغو. وبهذا درسوا عدة مؤسسات اجتماعية كأسر المهاجرين ووصفوا مونوغرافية أحيائهم، كما قدموا تحليلات حول الجرائم المنتشرة بهذا الوسط الحضري.

جعلت هذه المقاربة المنهجية رواد مدرسة شيكاغو تجاوزون التفسير الأخلاقي للظواهر الاجتماعية، وذلك باعتماد تحليل موضوعي للواقع الاجتماعي، وهو ما أعطى شهادة ميلاد للسوسيولوجية الأمبريقية الأمريكية التي أثرت كثيرا في العديد من الباحثين في مجال العمل الاجتماعي الذين كانوا يتابعون دروسهم بجامعة شيكاغو.

يقتضي تحليل الواقع الاجتماعي حسب هؤلاء معرفة الطريقة التي يرى بها الأفراد الأوضاع التي يعيشونها في وقت محدد وكيفية تعريفها. فالتحليل السوسيولوجي حسب

رأيهم يجب أن يأخذ بعين الاعتبار القيم والقواعد والظواهر الاجتماعية الخارجة عن الأفراد، ومن جهة أخرى المواقف الشخصية التي تشكل النسخة الذاتية للقيم. فالقيم الاجتماعية والمواقف الفردية هي التي توجه الفعل عند كل فرد عبر مجموعة من الرغبات التي لا تلبيها سوى البيئة الاجتماعية.

فلفهم الكيفية التي يتصرف بها كل مهاجر وفق الطريقة التي يعيش بها وضعيته في لحظة معينة، يجب تجميع المعطيات والوثائق التي ستمكن من الدخول إلى ذاته، كسيرة حياته ورسائله الخاصة أو ما إلى ذلك. وهذه التقنيات الميدانية هي التي سيتم استعمالها في شعبة السوسيولوجيا بجامعة شيكاغو حتى أواخر الثلاثينات من القرن 20 م. فهي تتكامل فيما بينها حسب طبيعة الدراسة وحسب أهداف الباحثين، كما أنها ساهمت في التوجه نحو دراسة الحالات عوض دراسة البنيات الاجتماعية الخفية، لأنها تمكن من فهم معنى تصرفات كل فرد وكذا معرفة الوضع الاجتماعي والثقافي التي تسجل فيها تصرفاته.

3. قضايا السوسيولوجية الحضرية عند مدرسة شيكاغو

باعتماد المناهج السالفة الذكر، أسس رواد مدرسة شيكاغو لسوسيولوجية حضرية تشتغل على المشاكل الاجتماعية لمدينتهم، خاصة المترتبة منها عن الهجرة القوية إلى هذه المدينة مطلع القرن العشرين، فمن قرية صغيرة لا تضم سوى عشرة منازل سنة 1830 أصبحت شيكاغو تضم حوالي مليون نسمة سنة 1890 وأكثر من ثلاثة ملايين نسمة خلال عقد العشرينات من القرن الماضي. هذا التمدن السريع يعود إلى كونها ملتقى العديد من الطرق البرية والبحرية، إضافة إلى استقبالها للعديد من المهاجرين الأوروبيين الوافدين من الدول الأوروبية كألمانيا، إيرلاندا، إيطاليا، بولونيا والتشيك...

1.3 وليام توماس ودراسة الأصول القروية لسكان المدينة

يعتبر وليام إسحاق توماس (William I. Thomas 1863-1947) من أهم مؤسسي مدرسة شيكاغو السوسيولوجية، حيث اهتم بدراسة إشكالية الهجرة والاندماج، وذلك بتتبع مجموعة من المهاجرين (البولونيين) ودراسة حياتهم في موطنهم الأصلي ومسار هجرتهم إلى أن وصلوا إلى أمريكا. وقد استعان توماس في هذه الدراسة بزميله الباحث البولوني الأصل زنانيسكي (Florian Znaniecki)، إذ أنجزا دراسة ضخمة حول «الفلاح البوبلوني بأوروبا وأمريكا» والتي استغرق نشرها ثلاث سنوات، أي بين سنتي 1918 و1920 في خمسة أجزاء، وهذه الدراسة أعيد طبعها بعد ذلك عدة مرات لكن في جزأين فقط (Thomas et Znaniecki، 1927). وقد تم تمويل هذه الدراسة من طرف منظمة خصوصية تهتم بالمشاكل الاجتماعية وفق فلسفة إصلاحية.

تنقسم هذه الدراسة إلى أربعة أجزاء، حيث تناول الجزء الأول التنظيم الاجتماعي، كالأسرة البولونية التقليدية وعاداتها وقيمها الاجتماعية المؤثرة في أفرادها؛ والجزء الثاني خصص لدراسة أوجه إعادة تنظيم المجتمع على أسس فردية، حيث تشكلت الأسر النووية الحديثة وتراجع نظام الأسرة الممتدة، بسبب التحولات التقنية والاقتصادية وتزايد الهجرة نحو المدن؛ أما الجزء الثالث فقد تحدث عن الاختلافات الموجودة بين استراتيجيات الزواج بين بولونيا وأمريكا، حيث كان الزواج في بولونيا قبل التحولات مبنيا على الاحترام، أما في أمريكا فقد أصبح مبنيا على الحب؛ وفي الجزء الرابع ركز الباحثان على سرد سيرة حياة مهاجر بولوني (إسمه فلاكديك).

توصل الباحثان من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج أهما رفض الحتمية البيولوجية التي تربط ممارسات المهاجرين بانتماءاتهم العرقية، أي بصفاتهم الفيزيولوجية، حيث يرون بأنها مرتبطة مباشرة بالمشاكل الاجتماعية التي تعترض حياتهم اليومية، فالبولونيون الذين استقروا بشيكاغو ستعترضهم عدة مشاكل في الاندماج، خاصة وأنهم من أصول قروية

تعرضوا لقطيعة مفاجئة، ليس فقط مع ثقافتهم الوطنية، بل حتى مع علاقاتهم الاجتماعية ونمط عيشهم القروي، بحيث دخلوا مباشرة في مدينة كبيرة ذات نمط رأسمالي صناعي وتجاري ونقدي، وكذا مجالا لصدام الثقافات. وهذه الأمور هي التي ستجعل هؤلاء المهاجرين البولونيين يشكلون تجمعا بشريا غير منظم ويعاني من عدة انحرافات وجرائم.

فأشكال الانحراف التي ظهرت لذا المهاجرين البولونيين (خاصة أفراد الجيل الثاني) لا ترتبط بانتماءهم العرقي، بل بانحرافات الأفراد، الذين غيروا روابطهم الاجتماعية القديمة بأخرى جديدة، مرورا بمرحلة انتقالية، سموها بالمجتمع البولوني-الأمريكي، والذي لا هو بالبولوني ولا هو بالأمريكي.

هذه الوضعية تنطبق كذلك على باقي المهاجرين الأوروبيين إلى مدينة شيكاغو، الأمر الذي جعلها تتحول إلى مركز للجنوح والجريمة المنظمة والفردية، وكذا مجالا لاجتثاث متعدد الأبعاد والحركات الاجتماعية المتعددة وغير المتماسكة ثقافيا واجتماعيا. ولمعالجة ذلك اقترحا تشجيع الهيئات التي تحافظ على الروابط مع الماضي كالجمعيات الثقافية وإقامة الحفلات الجماعية والتدريس بلغتين، وذلك لتسهيل عملية المرور إلى حالة التشابه التي اعتبرها توماس مطلوبة وحتمية في نفس الوقت.

فعبر هذا التشابه، حسب توماس، ستتشكل ذاكرة جماعية بين السكان المزدادين بأمريكا وبين الذين هاجروا إليها، حيث كان يحث الأمريكيين على تعلم لغات وثقافات شعوب المهاجرين إليها. وهذا التشابه يتجاوز البعد السيكولوجي إلى الأبعاد الاقتصادية والسياسية حينما يحمل المهاجرون نفس الغاية والهدف مثلهم مثل الأمريكين الأصليين.

2.3 روبير بارك والاهتمام بقضايا الأقليات داخل المدينة

ولد روبير إيزرا بارك (Robert Ezra Park) سنة 1864 بأمريكا وتوفي بها سنة 1944. درس أولا الفلسفة والسيكولوجيا بجامعة هارفارد سنة 1899، بعد ذلك هاجر إلى ألمانيا ليدرس السوسيولوجيا بجامعة برلين، حيث كان طالبا عند جورج سيميل. بعد هجرته إلى أمريكا دخل إلى شعبة السوسيولوجيا بجامعة شيكاغو سنة 1913 وهو في سن الخمسين سنة، حيث عمل في التدريس والصحافة والعمل الجمعوي، إذ كان كاتبا عاما لإحدى الجمعيات المدافعة عن حقوق السود الأمريكيين.

يرى أن تعلم السوسيولوجيا يكون بطريقتين: اكتشاف العالم الخارجي، حيث كان يحث طلبته على الخروج من الخزانات للعمل على جمع المعطيات الميدانية الجديدة وتحليلها، ثانيا الابتعاد عن مناطقهم الأصلية وأسرهم ليكتشفوا التنوع والاختلاف في أنماط العيش والممارسات الاجتماعية التي عليهم دراستها، وذلك باعتماد المنهجية الإثنوغرافية حتى لدراسة المجتمعات الحديثة، حيث كان يرى بأن الحي الحضري هو بمثابة القرية بالنسبة للإثنولوجي، وأن إقامة الباحث في الميدان لمدة طويلة وانغماسه فيه هي منهجية إثنولوجية. وبهذا جعل بارك البحث الاجتماعي أكثر علمية وموضوعية.

باعتماد هذا المنهج، سيطلق سنة 1916 برنامجا كبيرا للبحث حول المدينة، بداية بشيكاغو على أن تعمم هذه الدراسات على المدن الأمريكية الأخرى، إذ نشر رفقة زميله إرنست بيرجس كتابا بعنوان «المدينة» سنة 1925، حيث اعتبرا المدينة مختبرا لدراسة الظواهر الاجتماعية، خاصة الهجرة التي اعتبرها ظاهرة تاريخية وعملية دائمة لا يمكن أن تتوقف، كما أنها تعبير عن مشاكل اجتماعية يجب السعي لحلها غير الإندماج الحضري.

فمفهوم الاندماج عنده هو استمرار لمفهوم التشابه عند وليام توماس، فمن القضايا التي أثارت اهتمام بارك ومساعديه مشاكل الاندماج في المدن وظواهر التفكك الأسري

ومسارات الإقامة عند المهاجرين ومناطق سكن الأغنياء والفقراء، وكذا ظواهر الجنوح والدعارة والصراعات الأثنية والانحراف لدى الأطفال والمهمشين والمشردين، وأخيرا أشكال الحياة الجماعية بالأحياء السكنية لأسر السود الأمريكيين وأحياء اليهود.

يرى أن هذا الاندماج يمر عبر أربعة مراحل متتابعة: المرحلة الأولى هي الجوار، وهي علاقات أولية وأساسية ومنتشرة في العالم كله، لكنها تتميز بغياب الوساطة الاجتماعية بين الأفراد الذين يرتبطون فيما بينهم بعلاقات اقتصادية فقط؛ أما المرحلة الثانية فتتميز بتباعد المسافات الاجتماعية التي تفصل بين الحضريين وتقلص فرص الالتقاء فيما بينهم وكذا التعامل بشكل سطحي، إضافة إلى انتشار النزاعات بين السكان المختلفين للمدينة، إلى حد أن التنازع هو الذي يحدد مكانة كل جماعة اجتماعية؛ تأتي بعد ذلك مرحلة التشابه (التي تحدث عنها توماس)، حيث تتجه المجموعات الاجتماعية نحو الاختلاط والتمازج، وهي مرحلة لعبت فيها المدرسة وتنظيمات المهاجرين وصحفهم ولغاتهم دورا حاسما؛ وأخيرا مرحلة الاندماج، حيث تتشكل ديانة أو ثقافة توحد الجماعات والأفراد الذين يقبلون اختلافاتهم ويتعايشون فيما بينهم.

اعتبر روبير بارك أن هذا الاندماج الاجتماعي يوازيه تنظيم مجالي بطريقة طبيعية وعن غير قصد، بحيث يصبح للمدينة تنظيم مجالي من التجهيزات الاجتماعية ووسائل النقل والحدائق والمساكن، بالموازاة مع تنظيمها الأخلاقي، إذ تتشكل في المدينة قيم أخلاقية جماعية خاصة بها، وهو ما سماه دوركايم ب «الوعي الجمعي».

3.3 بيرجس وماكينزي وميلاد الإيكولوجيا الحضرية

إضافة إلى وليام توماس وروبير بارك عرفت مدرسة شيكاغو بأسماء لباحثين آخرين أمثال بيرجيس (Ernest Burgess) الذي ألف كتابا مع زميله بوغ (Bogue J.) حول «مساهمة في السوسيولوجية الحضرية». وكذا ماكينزي الذي ألف عدة كتب حول المجموعات

الحضرية وعلاقات الجوار (Roderick Mac Kenzie، 1921)، حيث شبهوا ما يقع بين سكان المدن من تفاعلات بما يقع بين مختلف أصناف الحيونات أو النباتات في نفس المجال وهو ما دفعهم إلى الحديث عن إيكولوجيا حضرية.

فماكينزي يشبه نمو المجموعات الحضرية بالنّباتات التي تتصارع هي الأخرى من أجل الحصول على المجال والتغذية والضوء لكي تنمو، وهي نفس المبادئ التي تتحكم في نمو المجموعات الحضرية بالمدينة، خاصة ما يتعلق منها بالخضوع لمسار طبيعي كالاختيار والمنافسة والتواصل، وهذا المسلسل هو الذي يحدد حجم الحياة ومبادئ التنظيم الاجتماعي بالمدينة.

فالمنافسة تؤدي إلى التوزيع المنتظم لخيرات المجال الحضري، أما التواصل فيمكن من إعادة بناء التفاهمات والتضامنات داخل المجال الحضري، في حين تزيد الكثافة المجالية من الاختلافات المهنية، بينما يعتبر التمييز عاملا من عوامل الاختلال، خاصة عندما يتحول إلى احتجاجات أو عنف، لكنه قد يتحول إلى عامل من عوامل التنظيم الاجتماعي، خاصة لما يحفز المجموعات ذات القواعد اللغوية والثقافية المشتركة إلى التكتل لتشكيل مستوطنات خاصة بمهاجري كل بلد على حدة، وأخيرا فالنجاح المهني يساهم في تجميع الطبقات الأكثر دينامية كالبورجوازية في منطقة أو حي سكني راقي تتعايش فيه العديد المجموعات العرقية جنبا إلى جنب.

أما ظاهرة التشابه فهي عامل يساهم في التنظيم لكن عبر مسلسل طويل، فالوافدون الجدد عليهم الخضوع لنظام المدينة وتنظيمها الاجتماعي الذي يحدده سكانها الذين استقروا بها قبلهم، وهذا التشابه يتم عبر تربية الأطفال والمراهقين والشباب والمهاجرين الجدد على ثقافة الحي الحضري والمدينة بشكل عام.

فمسار نمو المدينة، حسب ماكينزي يمر عبر تشكل أحياءها الحضرية على شكل «فضاءات» أو «تجمعات طبيعية» عبر آليات التصفية الاجتماعية التي تعتمدها المدينة، وهو ما ينتهي بتشكيل فسيفساء لأحياء حضرية أو مستوطنات أو فضاءات للجوار. فمدينة شيكاغو التي درسها الباحث نمتْ عبر سلسلة من الدوائر المتحدة المركز، حيث تمثل كل دائرة واحدة منها فضاء طبيعيا. ففي الدائرة الأولى تتركز الأنشطة الاقتصادية كالمحلات التجارية ومكاتب الشركات وهي الأماكن المبحوث عنها بكثرة، ثم تتبعها الدوائر الثانية المحيطة بالمركز والتي تحتلها الصناعات الخفيفة والفنادق والشقق المفروشة، لكنها تضم أيضا أحياء المهاجرين الجدد، في حين تتجه المساكن الفخمة للطبقات الغنية نحو الهوامش لتشكل دائرة ثالثة بعيدا عن الاحتقانات وضجيج المصانع.

إضافة إلى ذلك فإن هذه الفضاءات الطبيعية تشمل مساحة المساكن ومجموعة من السكان الحاملين لثقافة محددة تملك قواها في الجذب والاختيار. ففي مدينة شيكاغو كانت الأحياء تصنف إما باعتبارها مستوطنات لمهاجرين من دول مختلفة كالحي الإيطالي أو الحي البولوني مثلا، أو أحياء مصنفة حسب الأديان كملاح اليهود مثلا.

وسط هذه الأحياء يعتمد السكان في علاقاتهم الاجتماعية بالأساس على الجوار الذي يرتكز على القرب الفيزيقي والتآلف، حيث يتقاسم سكان الحي باعتبارهم جماعة أولية، ذاكرة واحدة ومشاعر وجدانية وأفكار مشتركة، وهي عناصر للتضامن الميكانيكي، وفق منظور دوركايم، وذلك لأن المجموعة الاجتماعية ومجال الحي يشكلان جزءا من الأنا الممتد عبر مشاعر الصدق والتضحية من أجل سكان الحي والغيرة عليهم عبر آليات الضبط الاجتماعي.

أما بيرجس فهو يستنتج وفق هذه المفاهيم الإيكولوجية أن التقسيم الاجتماعي للمجال الحضري، لا يعود إلى قاعدة العرض والطلب في مجال العقار، كما يرى ذلك الاقتصاديين، بل إلى أسباب اجتماعية كالإبعاد والميز العنصري، الذين يمكن أن يفسر بهما تجمع الجماعات

الاجتماعية في أحياء دون أخرى، وذلك بهدف التشبث بالهوية الثقافية للمجموعة الاجتماعية، أو للاحتفاظ بالمسافة التي تفصل بينها وبين الفئات الاجتماعية والإثنية الأخرى غير المرغوب فيها.

إذا كان وليام توماس وروبير باك قد طورا نظرة تفاؤلية حول الهجرة، بحيث رأوا بأن الاختلاط العرقي والثقافي يشكل في حد ذاته غنى، فإن بيجس وماكينزي يرون بأن المدن لا تتجه أبدا نحو الانسجام، وذلك لأنها تضم فئات ومجموعات اجتماعية مختلفة، فرغم القرب المجالي، فإن الاختلاف الثقافي والحركية المهنية وحركية الإقامة عند الأسر تؤدي إلى خلق فسفساء حضرية لا تتجه أبدا نحو التوحد والانتظام، حيث تستمر الحواجز والمسافات داخل العلاقات الاجتماعية بالوسط الحضري.

فالحياة الحضرية، بالنسبة إليهما تشكلت بسبب القطائع واختلال التنظيم والحركية الاجتماعية والاغتراب، وهو ما جعلهم يتحدثون عن الأمراض الحضرية التي سايرت ظاهرة الهجرة، حيث اعتمدوا في تحليلاتهم على الأبعاد الاجتماعية والمجالية لتصرفات الساكنة الحضرية. فعلى العكس من الحياة القروية التي تتميز باستقرار السكان فوق مجال محدد وارتباطهم فيما بينهم بروابط القرابة والجوار، فإن المدينة تعبر عن التقاءات يتم تحديدها بشكل مؤقت لمجتمع غير متجانس وفي مجال مميز، تضهر فيه عدة مظاهر للانحراف والجريمة.

استنتجا أيضا وجود ترابط بين الجريمة والتنظيم الاجتماعي للمدينة، خاصة شيكاغو، فتوسع هذه المدينة على شكل دوائر جعل بعض المناطق والأحياء التي تتواجد في الوسط، أي بين مركز المدينة (حيث المتاجر والمكاتب) وبين هوامشها (حيث تنتشر مساكن الطبقات الوسطى والميسورة) تعرف انتشار العصابات الإجرامية، فهذه الأحياء هي التي تعرف بأحزمة الفقر والبناء العشوائي والاقتصاد غير المهيكل، وهي شروط مساعدة لتشكيل العصابات التي اعتبروها إجابة للفوضى الاجتماعية والتعدد الثقافي، حيث تتشكل

من جماعات من الشباب الجانحين الذين يحتلون مجالا محددا. ومع تزايد عددها وتكثف صراعاتها حول المجال ظهر ما كان يسمى بحرب العصابات بمدينة شيكاغو سنة 1924، وهو ما استدعى إنجاز دراسة كبيرة حول الجريمة، حيث نشر «جون لانديسو» تقريرا بعنوان «الجريمة المنظمة بشيكاغو» سنة 1929، إذ برهن على وجود ترابط بين الجريمة والتنظيم الاجتماعي للمدينة، حيث قال: نفس الشيء بالنسبة للمواطن الصالح، فإن المجرم ابن بيئته، فالصالح تربى في جو من الاحترام والطاعة للقانون، بينما تربى المجرم في حي يخرق فيه القانون باستمرار».

4.3 لويس وورث: الثقافة الحضرية للمدينة

لويس وورث سوسيولوجي أمريكي من أهم وجوه مدرسة شيكاغو، وهو من أصل ألماني، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1936، حيث استكمل دراسته هناك. اهتم هو الآخر بالظواهر الحضرية، خاصة ممارسات الأقليات ووسائل الإعلام، حيث كتب أهم مقال له بعنوان «الظاهرة الحضرية كنمط للعيش» المنشور بالمجلة الأمريكية للسوسيولوجيا سنة 1938، وهو عبارة عن خلاصة لمواقف مدرسة شيكاغو حول الظواهر الحضرية.

حاول لويس وورث صياغة مقاربة ثقافية لظاهرة التمدن، حيث تحدث في مقاله عن معايير وقيم الفاعلين الحضريين، التي تعتمد بالأساس على التفاعل الاجتماعي بين هؤلاء الفاعلين المختلفين في المواقف والتنظيمات الاجتماعية، في إطار ما سماه بالمجتمع المكثف. ويلخص لويس وورث عددا من الملاحظات السابقة باقتراح نموذج «للشخصية الحضرية» التي تتحدد بعدة عناصر منها:

- كون العلاقات الاجتماعية بالوسط الحضري غير مشخصة ومجهولة وسطحية ولحظية في الزمان والمكان، عكس العلاقات التقليدية التي كانت تجمع بين أعضاء المجموعات الاجتماعية بالقرى، وذلك بسبب الهجرة نحو المدن. فالحضريين ينسجون علاقات ثانوية فيما

بينهم، أي علاقات مؤقتة وعابرة وذات صبغة نفعية ولا تربط سوى بين الأشخاص، حيث يجد الفرد نفسه وسط نظام معقد من الأدوار والتبعيات المتعددة، كما يحس بانفتاح كبير يعطي القيمة للمفردات، الأمر الذي نتج عنه تزايد المواقف الفردية والتصرفات غير المستقرة، التي تستدعي الزيادة في المراقبة الاجتماعية، إذ أن الحركية الزائدة وعدم الاستقرار التي تميز المهمشين والمتشردين والغرباء تشكل ظواهر تستدعي التفكير في ظروف عيش الحضريين بصفة عامة.

- الاعتماد على الإطار المجالي والاجتماعي معا لتحليل الممارسات والظواهر الحضرية، وذلك لأن المدن تشكلت فوق مجال جديد ومن مجتمع غير منسجم، عكس المجال القروي القديم المشكل بعلاقات مثينة ومستقرة كالقرابة والجوار. فتباعد المسافات الاجتماعية التي تفصل بين الحضريين لا تعود فقط إلى عدم الانسجام الاجتماعي والثقافي ولا بتعدد المصائر الفردية، بل إلى كون تعدد فرص الالتقاء تفرض ضرورة أخذ الحذر والتعامل بشكل سطحي في التبادلات التي تعتبر أساس التفاعل الاجتماعي.

أن المدينة لا يتم تسييرها بثقافة واحدة، بل بعدة ثقافات لكونها تتشكل من فسيفساء من الجماعات الاجتماعية التي استقرت بالمدينة في عبر فترات توسعها، فكل جماعة اجتماعية لها ثقافتها وتاريخها وأهدافها الخاصة داخل نفس المدينة.

4. تقييم تجربة مدرسة شيكاغو في السوسيولوجيا الحضرية

لعل النتائج الأولية التي استنتجها رواد هذه المدرسة جعلها تحظى بشهرة كبيرة، مما شجع العديد من المانحين والمسؤولين السياسيين على الاهتمام بقضايا فكرهم السوسيولوجي وعلى تمويل العديد من دراساتهم، الأمر الذي ساعدهم على القطع مع طرق البحث الأكاديمي الكلاسيكي والانخراط في البحث الميداني وعلى انفتاح الجامعة على المحيط الخارجي وكذا إظهار أهمية البحث العلمي في إيجاد حلول لمشاكل المجتمع.

رغم هذه المجهودات الفكرية والمنهجية في بناء سوسيولوجية حضرية عصرية، فإن مدرسة شيكاغو لم تسلم من النقد، حيث خصص إمانويل كاستل (من رواد السوسيولوجية الحضرية الفرنسية) فصلا في كتابه «المسألة الحضرية» (1972) للحديث عن هذه الانتقادات، والتي لخصها في ثلاثة نقط أساسية:

- أولا على المستوى المنهجي، على اعتبار أن التقنيات الامبريقية (الملاحظة وسيرة الحياة) التي استعملها رواد مدرسة شيكاغو غير كافية للتوصل إلى نتائج علمية دقيقة؛
- ثانيا اعتبار النموذج الإيكولوجي غير كافي لمقاربة السلوك الاجتماعي للأفراد داخل المدن؛
- ثالثا ربط العلاقة بين الثقافة والمجال مسألة إيديولوجية، حيث تحدث مانويل كاستل عما أسماه بأسطورة الثقافة الحضرية.

إضافة إلى ذلك فمع نهاية عقد الثلاثينات من القرن الماضي اختفت مدرسة الإيكولوجيا الحضرية كما هي من قبل، حيث انتقلت السوسيولوجيا من استعمال التقنيات الكيفية في البحث الميداني إلى استعمال تقنيات أمبريقية أكثر كمية كالاستمارة واستطلاع الرأي، وذلك سعيا إلى تحليل الظواهر الاجتماعية عن طريق نظم من العلاقات بين المتغيرات. رغم ذلك فإن النتائج التي توصلت إليها مدرسة شيكاغو ستستمر كمرجع للعديد من الباحثين السوسيولوجيين اللاحقين رغم إدخال بعض التعديلات عليها.

الفـــلاح البولوني

في ١٩٠٨ ، كان البروفيسور توماس ، من جامعة شيكاغو ، يحصل من مؤسسة خاصة على مساعدات مهمة لدراسة المشاكل المتعلقة بالهجرة الاوروبية الى الولايات المتحدة . وقد قرر بعد فترة قليلة تركيز بحثه حول الفلاحين البولونيين الذين كان يوجد العديد منهم بين سكان شيكاغو الذين هم من أصل اجنبي وقد كانوا مثقلين بالمشاكل . واكتشف توماس خلال احدى رحلاته الى بولونيا ، زنانيكي وهو شاعر وفيلسوف ، واتخذ الاجراءات التي تمكنه من المجيء الى الولايات المتحدة للعمل معه . وأصبح زنانيكي ، فيما بعد ، وجها بارزا في علم الاجتماع . وقد نشر التقرير الذي وضعاه بتعاونهما عام ١٩١٨ .

كانت مواد التقرير تتألف من مجموعة واسعة من الوثائق ، الرسائل الشخصية ، مقالات الجرائد ، لوائح الانتساب الى جمعيات المهاجرين ، المحفوظات الرعوية ، محاضر اجتماعات الجمعيات الاميركية ـ البولونية ، تقارير المحاكم وأجهزة المساعدة الاجتماعية ، ولم تعرف كمية الوثائق التي فرزت ، ولكن أكثر من الف منها ظهرت في « **الفلاح البولوني في أوروبا وأميركا** » بما فيها السيرة الذاتية الطويلة والمشوقة لمهاجر يدعى فلاديك . وقد اعتبر المؤلفان السير الذاتية نمطا مكتملا للمادة الاجتماعية . ان منهجهما الرئيسي كان نوعا من تحليل المحتوى ، وكان على الوثائق المدروسة ان تكشف الاتجاهات والقيم الخاصة بالاشخاص الذين تعود اليهم .

وتشكل **الاتجاهات والقيم** العبارات ـ المفاتيح لهذه الدراسة . فبالنسبة لتوماس وزنانيكي كان للقيم الاجتماعية المعنى ذاته الذي

للافعال الاجتماعية بالنسبة لدوركهايم . فالقيمة الاجتماعية هي عنصر من الثقافة ، ملموس او مجرد ، وهو ذو فائدة لأفراد المجموعة الاجتماعية ويرتدي بالنسبة لهم معنى يتقبلونه بدون أن يفكروا فيه . وفي المقابل ، فان الاتجاه هو سيرورة واعية وشخصية تحدد النشاطات الاجتماعية للفرد . وهو الرأي الشخصي والذاتي المعاكس القيمة الاجتماعية . وعلى غرار زيميل ، ولكن على اختلاف مع دوركهايم ، كان توماس وزنانيكي يسبغان على النشاطات الاجتماعية ثنائية طبيعية . فبالنسبة لهما تنتج هذه النشاطات عن قوى اجتماعية خارجة على الفرد وعن دوافع شخصية داخلية . وكانا ينفيان أية مصداقية عن التفسير الاجتماعي الذي لم يكن يأخذ بعين الاعتبار الافعال الاجتماعية وكذلك الدوافع الفردية . « **ان سبب قيمة ما أو اتجاه ما ليس ابدا ولا بصورة وحيدة قيمة او اتجاه ، بل هو دائما مزيج من قيمة واتجاه** » .

ان الاتجاهات الفردية والقيم الاجتماعية تنمزج في كل فرد بواسطة عدد كبير من **التطلعات** التي يستطيع المحيط الاجتماعي وحده تلبيتها . ويعدد المؤلفان اربعة نماذج عامة من التطلعات :

١ ـ الرغبة في التجارب الجديدة ؛
٢ ـ الرغبة في العرفان بالجميل من قبل الغير والذي ينطوي على الروابط العاطفية وعلى علامات التقدير من قبل المجتمع بشكل عام ؛
٣ ـ الرغبة في القوة والتي تمر ، على الاخص عبر الملكية والسلطة السياسية .
٤ ـ الرغبة في الامان (التي تنطوي بالنسبة لفرد ما على دعم ومصاحبة اقرانه) .

لقد اصبحت هذه « التطلعات الاربعة » مشهورة ، ولكنها معروفة بصورة افضل من خلال الصياغة التي اعطاها اياها زنانيكي لاحقا ، حيث تختفي الرغبة في القوة لصالح الرغبة في تأكيد الذات .

ومثلما يشير العنوان فان « الفلاح البولوني في اوروبا واميركا » يدرس وضع الفلاح البولوني في القارتين ، لكن قبل كل شيء فان التغيير الاجتماعي هو الذي يشكل مركز الاهتمام . ففي القرية البولونية التقليدية كانت المجموعة العائلية تؤلف المجموعة الرئيسية وكان الافراد ملحقين بها . وكانت واجبات اعضاء العائلة ، ازاء بعضهم البعض ، ملزمة . وكان

الزواج ينتج عن ترتيب بين عائلتين ، بينما تنفى كل قيمة خاصة بالحياة الجنسية . ولم يكن الفلاح ينتمي ، عمليا ، سوى لمجموعة اجتماعية منظمة واحدة هي العائلة . ولم تكن علاقاته مع العائلات المجاورة حميمة بشكل خاص ، ولكن كان ثمة تضامن قوي داخل كل قرية ، بفعل ان معظم الفلاحين كانوا ينظرون بذات الطريقة الى أدوارهم وعلاقاتهم الاجتماعية وكانوا يتقاسمون المعتقدات نفسها فيما يخص الدين والسحر . وقد كانت المجتمعات القروية هذه ، بشكلها التقليدي ، محمية بصورة ملحوظة من التأثيرات الخارجية ؛ وهي لم تكن تابعة لأي من ارستقراطيات الارض كما ان القرى كانت صغيرة وقليلة العدد . وقد بيّن توماس وزنانيكي كيف ان هذا النموذج قد هدم . فالتغييرات الاقتصادية والتأثيرات الخارجية أضعفت تضامن العائلة والقرية ، وافسحت في المجال للافراد باختيار اتجاهات جديدة متعارضة مع القيم العائلية وادخلت اختلافات في الاراء ، في المعتقدات وفي التوجهات الاقتصادية في القرية . ويحدد المؤلفان **تفكك التنظيم الاجتماعي** باعتباره اضعافا لتأثير القواعد الاجتماعية القائمة على سلوك اعضاء الجماعة ، كما يبينان كيف ان هذا التأثير استطاع ان يحدد كل جانب من المجتمع الفلاحي البولوني بعد سنة ١٩٠٠ ، قبل ان يقود الى **اعادة التنظيم** . فقد حلت قيم واتجاهات منتعية في العائلة محل شكل التضامن القديم . وقد حل السعي الى النجاح الاقتصادي وامتيازاته ، في القرية ، محل الجماعية القديمة المحافظة . وقد شهد المجتمع البولوني بكامله اتساع طبقة متوسطة جديدة ، وتعزز الشعور القومي ، وتحول المعتقدات الدينية ، وولادة الحركات الثورية ، والانتشار المتنامي للافكار الجديدة عن طريق التربية والصحافة .

ان شكلا اوضح من تفكك التنظيم الاجتماعي ظهر مع هجرة الفلاحين الى الولايات المتحدة ، حيث كانوا يتركون خلفهم ، حين انتقالهم ، البناء الفوقي للقرية البولونية كما كانوا يتركون عائلاتهم غالبا . ولم يكن المهاجرون يدخلون مباشرة في العالم الاميركي ، بل كانوا ينضمون ، في البداية ، الى غيرهم من المهاجرين ؛ والعالم الذي كانوا يدخلونه هو عالم المستوطن الاميركي ـ البولوني وليس العالم الاميركي الاصيل . وهنا ايضا ، كانت العادات والاتجاهات الجديدة تحل محل التفكك التنظيمي . فقد كنا نشاهد بروز مجتمعات المستوطنين ، والرعويات البولونية ، والجمعيات الخيرية ، ونظاما تعليميا طائفيا ،

وجمعيات أمريكية ـ بولونية تعوض ، جزئيا ، الجذور التي كان المستوطن يفتقدها . ولكن هذه الجماعات الثانوية الجديدة لم تستطع أن تنوب كليا عن الجماعات الاصلية القديمة . وهكذا بدأ يظهر لدى الفلاحين البولونيين القاطنين في الولايات المتحدة التفكك **التنظيمي الفردي**، الذي حدد من قبل توماس وزنانيكي باعتباره اضعافا لاستعداد الفرد على تنظيم حياته باتجاه تحقيق مصالحه الخاصة . ان التفكك التنظيمي الفردي هو غير التفكك التنظيمي الاجتماعي مع أنه قريب منه . فبعض الافراد يجدون أنفسهم مفككين تنظيميا حيث يخترع البعض الاخر نماذج من النشاط جديدة وفعالة .

لقد أخذ التفكك الاجتماعي الفردي عند الفلاحين البولونيين القاطنين في الولايات المتحدة الاشكال التالية : استقلال اقتصادي ، ضعف العلاقات الزوجية ، قتل ، انحراف الاحداث .

وتقدم لنا الخلاصة التالية مثلا حول الطريقة التي كان يلجأ اليها توماس وزنانيكي ، في عملهما ، لامتحان الاتجاهات والقيم الموجهة ، حيث انتقدت جهود المحاكم والاجهزة الاجتماعية من اجل تجنب تفكك عائلات المستوطنين :

« أن تدخل الدولة يدخل عنصرا جديدا بالكامل على الحياة الزوجية للمستوطن البولوني ؛ فبالنسبة له ، ليس نشاط الدولة هو فقط نشاط المحاكم والبوليس بل هو ايضا نشاط المؤسسات الاميركية الخاصة وشبه الخاصة ؛ لأنه نادرا ما يدرك التمييز بين المؤسسة الحقيقية التابعة للدولة وبين تلك التي تكتفي الدولة بدعمها ، خاصة عندما تستعمل هذه الاخيرة المحاكم والبوليس ، او على الاقل عندما تبدي قدرتها على ذلك . فلا وجود لعامل له تأثير مهدم ، بانتظام وبتصميم ، على الزواج ، كتدخل الدولة . ان دراسة صادقة لمئات من الحالات لم تسمح لنا بايجاد مثل واحد أدى فيه تدخل الدولة الى تمتين العلاقات الزوجية . . . » .

ان تفسير هذه المسألة متوفر . فالقهر الاجتماعي الذي تفرضه العائلات والقرية في بولونيا على الجماعة الزوجية ، يمارس باسم مصالح الجماعة . ولا يقوم دور المحيط الاجتماعي في التدخل بين المراة والرجل وفي لعب دور الحكم ازاء مطالبهما وكأنها صادرة عن أفراد مستقلين ، بل يقوم في المحافظة على وحدتهما عندما تكون مهددة من قبل تصرفات

كل واحد منهما . ويدفع الفرد للتفكير بأنه يرتكب خطيئة تجاه الصفة القدسية للزواج ، وليس لأنه مخطىء تجاه فرد آخر عندما يتصرف بشكل مسيء . وبالتالي ، فان القهر المارس من قبل المحيط الاجتماعي القديم كان ينمي المعنى المؤسسي للرباط الزوجي . وعلى العكس من ذلك فان تدخل المؤسسات الاميركية يكتسب معنى التحكيم بين المرأة والرجل واللذين يعتبران بصورة رسمية وشبه رسمية كأطراف متخاصمة ، وأفراد ذوي مطالب تستدعي حلا عادلا ومتوازنا . وفجأة تستوي القضية كلها ، ليس على قاعدة التضامن وانما على قاعدة معركة يسعى كل طرف فيها للحصول ، بالوسيلة الممكنة ، على اقصى ما يستطيع من عدوه(١) .

ان الاميركيين من اصل بولوني هم الان بمعظمهم مستقرين منذ ثلاثة أو اربعة اجيال ولا يطرحون مشاكل خاصة بهم ولكن التحليل الذي قمنا به يمكن تطبيقه على بعض المستوطنين الوافدين حديثا والذين يحتلون اسفل السلم الاجتماعي المديني .

مدرسة علم البيئة في شيكاغو

ان مؤسس هذه المجموعة المهمة من الابحاث هو روبرت بارك وهو الذي اشرف على عدد كبير منها . فقد دخل الى جامعة شيكاغو في الخمسين من عمره ، بعد تمرس طويل كصحافي ، وكخبير في مادة العلاقات الاثنية والرحالة . ويرجع تكوينه السوسيولوجي الى زيميل ، الذي كان مثله ، مفتونا باستمرار بتنوع وتعقيد الحياة المدينية . وكان بارك يحب القول بأنه وطيء ارض مدن ، عبر العالم ، اكثر مما فعل غيره من معاصريه ، بكثير ، على الارجح(٢) . وقد كتب عام ١٩١٦ للمجلة الاميركية لعلم الاجتماع مقالا ملحوظا : « **المدينة : اقتراحات لدراسة السلوك الانساني في المحيط المديني** »(٣) حيث بالغ فيه بالاشادة بدراسة الحياة المدينية وثقافتها بواسطة عدد معين من التقنيات : الملاحظة

---

(١) The Polish peasant, op. cit. pp. 1747-1749.

(٢) R. E. PARK, Human Communities, N.Y. The Free Press of Glencoe, 1952. p. 5.

(٣) R. E. PARK, « The City : Suggestions for the investigator of human behavior in urban environments A. R. S., 20 March 1916, pp. 577-612.

المباشرة ؛ التحليل الاحصائي ؛ دراسات الحالات ؛ وصف لأنماط مختلفة من المهن ، دراسة السيرورات الحكومية وتحليل لما يسمى حاليا التشعبات الثقافية المنحرفة .

وقد وضع هذا البرنامج في الاعوام التالية قيد التنفيذ بحماس لا مثيل له . وأنجزت سلسلة طويلة من الابحاث عن شيكاغو بادارة بارك ونشرت في منشورات جامعة شيكاغو . وكانت المواضيع تتضمن : السكان بدون مأوى . تفكك التنظيم العائلي ؛ عصابات الاحداث الجانحين ؛ الغيتو ؛ الانتحار ؛ مناطق السكن الفنية والفقيرة في الضاحية الشمالية القريبة ؛ مناطق الجنوح القوي ؛ فتيات التاكسي ؛ العائلة الزنجية ؛ تنظيم الدعارة والتوزيع الجغرافي للانماط المختلفة من الامراض العقلية .

ان مدنا أخرى غير شيكاغو كانت موضوع دراسة من النمط نفسه ؛ والنتائج المحصلة في شيكاغو يمكنها ان تنسحب على المناطق المدينية بشكل عام .

ان باحثي مدرسة شيكاغو تحدثوا ، في موضوع أعمالهم ، عن علم البيئة الانساني (أو علم البيئة المديني) بسبب الشبه الموجود بين علاقات شعوب مدينية مختلفة وبين علاقات الاشجار والنباتات من أنواع مختلفة في أرض واحدة . لقد تحدث هؤلاء الباحثون عن **التتابع** ، مستعيرين لذلك مفاهيمهم من علم بيئة النباتات ، عندما كانت فئة من السكان تستبدل بفئة أخرى في حي ما ، وعن **التعايش** عندما كانت تتواجد فئات من السكان ، لا تربطها أية قرابة ، في المنطقة ذاتها ، وأيضا ، عن **الهيمنة** عندما كانت تخضع القطاعات المحيطية لتأثير شروط الحياة في المركز المديني . وكانوا يستعملون ايضا مفاهيم اعم متأتية من دراسة تفاعل الجماعة . وكانوا يعتقدون ، بأن علاقات الجماعة باستطاعتها ان تأخذ شكل **المنافسة** ، **الازمة** ، **التسوية** أو **التكيف** . فثمة منافسة عندما تناضل الجماعات من أجل غايات متشابهة ، بدون ان تتصارع فيما بينها . وهناك ازمة عندما تتوق هذه الجماعات الى بلوغ غاياتها بالتخلص من بعضها البعض ، مثلما يتم التخلص من عقبة ما . وثمة تسوية ، عندما يكون للجماعات أهدافا متعارضة وتتوصل الى ايجاد ترتيب مشترك مديد . وأخيرا ، هناك تماثل ، عندما تندمج جماعتان لكي لا تتابعان أهدافهما بشكل منفصل . هذه المفاهيم استعملت

لبناء نماذج عن التوسع المديني . فمثلا تضبط المنافسة على المواقع المتميزة في مركز المدينة بواسطة سعر الارض . وتساهم الازمة بين المستوطنين الجدد والقدامى في اعادة التوزيع السريع للسكان . وكل جماعة جديدة تقوم باجتياح الارض المشغولة من قبل السابقين عليها . أما المساومة فانها تتطابق مع شروط السلام الصعبة التي تنشأ على حدود الاحياء السكنية ومناطق الاكواخ القذرة . ونجد التكيف عندما تتجه فروع من جماعات المستوطنين نحو الضاحية ، وتعتمد الثقافة الخاصة بالطبقة الوسطى وتقيم الحواجز للاحتماء من سكان المركز المدنيين .

ان التقنيات المستعملة في هذه الابحاث جد تقريبية اذا عدنا الى المقاييس الحالية ؛ فالمحقق كان يبدأ بالملاحظة المشاركة، وكان يضيف فيما بعد كل ما يمكن ايجاده من مواد اضافية : تقارير رسمية ، معطيات مسحية . محفوظات ووثائق خاصة ، سير ، مقابلات ، استمارات ، مواد صحفية وتقارير مخبرين موصوفين . وقد تناولت بعض هذه الابحاث السلوك المنحرف (جريمة ، جنوح ، انتحار ، دعارة ، اضطرابات عقلية) واستدعت ، بالافضلية ، اعتماد القياسات الاحصائية . وعندما توصل فاريس ودانهام الى البرهنة على أن مرضا عقليا فرديا جدا مثل الفصام كان محصورا في بعض مناطق بيئية، بلغت هذه الثقة بالاحصاء ذروتها . ان عالم الاجتماع الانكليزي المعاصر مادج ، تحدث ، وهو يصف عمل مدرسة شيكاغو ، عن اهتمامها الاكيد بالتوطن المعاصر ، وعن ثقتها بامكانيات تحسين الانسان ، وعن كرهها الاميركي المميز للانحراف والراديكالية ، الذي يمتزج ، بشكل غريب ، بتفهم رائع لغنى وتنوع المؤسسات الانسانية(*) .

يمكن ايجاز الاكتشافات الرئيسية لمدرسة شيكاغو على النحو التالي :

ا ـ لم تعد تسيطر على المجتمع المديني ثقافة بسيطة وموحدة ، وانما ثقافة هي نتاج تشعبات ثقافية متنوعة ، لكل منها تاريخها ومروحة مصالح متمايزة .

ب ـ ان المجتمع المديني ليس تنظيما اجتماعيا موحدا ، ولانما

---

* J. MADGE : The origins of scientific sociology. The Free Press of Glencoe. 1962, p. 125.

يضم جماعات متباينة لكل واحدة منها تصوراتها عن الفرص والموانع .

ج ـ يشجع الوسط المديني اتساع المسافة الاجتماعية بالرغم من ضيق البعد الجغرافي . وبما أن المجموعات التي هي موضع عزل هي من الاهمية بحيث انها تستطيع أن تكتفي بذاتها ، كذلك فان المسافة الاجتماعية بين المجموعات المختلفة هي أكثر أهمية في الحاضرات المتروبولية مما هي في المدن الاقل شأنا .

د ـ ان الفاصل بين فروع الثقافات المتروبولية لا يمنع الحركية الفردية . ففي الواقع ، يشجع هذا الفاصل الحركية لان الفرد الذي يندمج في مرتبة جديدة يجد نفسه مقطوعا بصورة آلية عن علاقاته السابقة .

هـ ـ وبفعل نتائج التمايز والحركية المتمازجة ، فان الكثير من المدنيين يصبحون ، بدرجات متفاوتة ، مبعدين اجتماعيا ويتعودون على العيش بدون أن يتم الاهتمام بهم ودون ان يهتموا بأحد . وغالبا ما يتجمع الاشخاص المبعدون اجتماعيا أو اللاانضباطيون في الاحياء ذات الشقق المفروشة والنزول وملاجىء المتشردين ولكنهم لا يتوصلون لانشاء روابط اجتماعية متينة فيما بينهم . ان النسب المرتفعة للانتحار ، الاضطرابات العقلية ، سوء التغذية والصحة الرديئة هي خصائص هذه الاحياء .

و ـ تتميز المدينة الكبرى بارتفاع نسبة الجريمة وبسلوكات تعتبر غير طبيعية أو غير أخلاقية : السكر ، الادمان على المخدرات ، الدعارة ، اللواط . ألعاب القمار ، التشرد ، هدم النفائس ، عدم القدرة على تأمين الحاجات الذاتية . ان دراسات مدرسة شيكاغو كانت الاولى التي برهنت بأن معظم هذه السلوكات قد تكيفت مع معايير المتحدات الاجتماعية الفرعية التي تشجع أو تكافىء السلوكات المنحرفة .

ز ـ ان كل الاشكال المعبرة عن الانحراف والموجودة في الحاضرة (الميتروبول) مجمعة بشكل واضح ؛ ومع اننا نجد داعرات ومدمني مخدرات منتشرين عبر الوسط المديني ، فان أغلبيتهم تتجمع في عدد محدود من الامكنة ، وأحيانا في نطاق واحد . ويوجد ترابط بيئي بين الاشكال المختلفة للسلوك المنحرف ، ذات الاتجاه نحو التمركز في الامكنة ذاتها ، وبين الفقر ، الاستعطاء ، والبطالة .

ح ـ ان البنية البيئية لحاضرة أميركية هي متحركة اكثر مما تبدو

في الظاهر . فاشكال الاقامة في الارض واستعمالها نادرا ما تستمر أكثر من جيل . والطفل الذي أصبح راشدا لا يستطيع التعرف على حيه القديم اذا رجع اليه .

ط ـ تأخذ عملية التوسع الاسم غير المناسب **للامركزية المتركزة** ويستمر سكان الحاضرة بالنمو بينما تتعقد بنياتها . ويترافق نمو الضاحية وامتداد التأثير المديني على قسم أكبر من أقاصي البلاد ، مع تمركز قوي لوظائف حي الاعمال ، ومع تغييرات عديدة في الاحياء الوسطية .

ان المواضيع التي كانت مدرسة شيكاغو الاولى في اكتشافها (التفاعل في الحي ، عصابات الاحداث المنحرفين ، العائلة المفككة ، المشردين) أصبحت اليوم مواضيع لدراسة دائمة في كل مكان من العالم ، من شيكاغو الى أوساكا وعبادان .

الحركية الاجتماعية

ان مؤلف سوروكين « الحركية الاجتماعية »(٤) يشبه بعض الشيء ، بأبعاده ، « **الانتحار** » لدوركهايم . فهو يحتوي على مجموعة من المواد الاحصائية من كل الاصول ، وعلى نتائج الابحاث التي انجزها المؤلف بنفسه كما يحتوي ايضا على مواد غير كمية . وكل ذلك مندمج في تفسير طويل .

لقد كان سوروكين من أصل روسي وقد تلقى تكوين عالم نفسي وكان دوره مطمورا في بداية الثورة عام ١٩١٧ بوصفه عضو في المجلس الوطني وسكرتير الوزير الاول . وقد نكب في ظل النظام الاشتراكي وترك روسيا كلاجيء سياسي عام ١٩٢٢ . ولقد ألف « الحركية الاجتماعية » ، بعد أن أعفي وقتيا من وظائفه كأستاذ مساعد في علم الاجتماع في جامعة مينيسوتا ، وهو العمل الاول في سلسلة طويلة . ولقد اشتهر بسرعة وابتدا مهنة جامعية طويلة وناجحة امتدت بدون انقطاع حتى وفاته العام ١٩٦٨ ، وكانت ستوصله بالتأكيد الى كرسي التعليم في هارفرد .

عرف سوروكين الحركية الاجتماعية باعتبارها انتقالا للافراد او

---

(٤) P. SOROKIN, Social Mobility, N.Y. Harper and Brothers, 1927.

الطبقات داخل المجال الاجتماعي(٥) ، وكان يميز بين نوعين من الحركية : الحركية الافقية والحركة العامودية . فالحركية الافقية هي تنقل فرد أو جماعة من وضع اجتماعي الى وضع آخر بمستوى مماثل . والهجرات والتغيرات في المهنة والانتماء هي جزء منها . أما الحركية العامودية فهي انتقال مرتبة اجتماعية الى مرتبة أخرى ، أي تقدم أو تراجع في البنية الاجتماعية التراتبية . ان هدف دراسة سوروكين هو الحركية العامودية والتنضيد الاجتماعي . أما الحركية الافقية فانه لا يأتي عليها الا بالذكر .

يبدأ سوروكين بالبرهنة على أن أنظمة التنضيد في العصور المختلفة في التاريخ كانت تميل للتنويع وفق سيرورة دائرية ، فمثلا ، ان مستوى الثروة والعائدات الوسطية يتغير في المجتمع الواحد من حقبة الى أخرى . وتتعاقب التجزئة مع تمركز الملكية ؛ والتنضيد السياسي « يبدو متنوعا في الزمان والمكان بدون أي توجيه دائم »(٦) . ويأتي بعد ذلك، نقاش طويل لطرق الحركية العامودية في مجتمعات مختلفة ، أما الخلاصة فهي أن ثمة ، حتى في النظام الاجتماعي الاكثر صلابة ، امكانية للتقدم سواء كان ذلك في الميدان الاقتصادي ، السياسي أو المهني ، وعلى العكس من ذلك فانه لا يوجد نظام ، مهما كان منفتحا ، يسمح بحركية مطلقة .

ان المقاطع الاكثر فائدة في هذا المؤلف هي التي تعالج الاختلافات الجسدية والفكرية بين مختلف الشرائح الاجتماعية للمجتمعات الحديثة والعناصر التي تساهم في المحافظة على الحركية العامودية في المجتمعات الغربية . وقد نبش سوروكين بضعة دزينات من الدراسات المنسية ، والمنجزة في القرن التاسع عشر من قبل فيزيائيين واختصاصيين في الانتروبومتري(*)، وبيّن أنه يوجد في الكثير من المجتمعات ، اذا لم يكن فيها جميعا ، ترابط لا يمكن اهماله بين المركز الاجتماعي والمميزات الجسدية كالقامة ، الوزن ، دائرة الرأس ، غياب التشوهات ، الجمال ، طول العمر ، الصحة ، القوة العضلية ، مقاومة المرض ووفيات الاطفال . ويستخرج أيضا روابط تبدو لنا مألوفة ، بين المركز الاجتماعي من جهة

---

(٥) ثمة تعريف آخر يصلح ، في الان نفسه ، لحركية الاشياء والقيم كما يصلح للاشخاص — Ibid, p. 3, — وهو مقدم في بداية الفصل السابع من « الحركية الاجتماعية » ، ولكن سوروكين لا يستعمله أبدا فيما بعد .

(٦) — Ibid, p. 84.

(*) القياس في علم الانتروبولوجيا الطبيعي .

والذكاء ، النجاح المدرسي والمهني من جهة اخرى . ولم يستطع سوروكين ان يحدد الى أي مدى يمكن ان تعزى هذه الاختلافات ، في تطور الشخصية ، الى تفاوت في الاستعدادات ، أو الى تساوي في الفرص .

٦ ميدل تاون

لقد قام روبرت ليند بدراسات ليصبح كاهنا في الكنيسة الكالفانية(*) . وقد اشتغل في بداية العشرينات مع زوجته في مؤسسة الابحاث الاجتماعية والدينية ، وباشر معها تحقيقا حول النشاطات والمعتقدات الدينية لمجموعة اميركية . وقد وقع اختيارهما على مونسي ، وهي مدينة صغيرة صناعية عدد سكانها ٤٠ الفا تقريبا ، قريبة من مكان ولادة ليند ، في ولاية انديانا . وقد خبأت هوية هذه المدينة رسميا تحت الاسم المستعار **ميدل تاون(٧)** . وسريعا ما تخطت الابحاث حدودها ، وامتدت الى مجمل الحياة الاجتماعية والمؤسسية للمدينة . وقد كان هناك ستة ابواب : اكتساب العيش ، بناء المنزل ، تربية الولد ، استعمال أوقات الفراغ ، الممارسة الدينية والمساهمة في النشاطات الجماعية والمدنية . وكانت الابواب هذه تنطوي على عدة أجزاء ، فنشاطات الجماعة تتضمن ، مثلا ، الجهاز الحكومي ، الصحة العامة ، المساعدة الاجتماعية ، نشر الاعلام وكل « ما يساهم أو يضر في تضامن الجماعة » .

ولقد فتحت عائلة ليند ومساعدوها مكتبا في احدى بنايات المدينة . وجمعوا خلال ثمانية عشر شهرا ، المعطيات الاحصائية ، وشاركوا بقدر المستطاع في حياة المدينة بكل اشكالها . وقد بني التقرير النهائي على دمج المعطيات الرسمية والانطباعات الشخصية . وكان الاتجاه الاساسي للبحث مقارنة موسعة بين ميدل تاون المعاصرة (١٩٢٤ — ١٩٢٥) وميدل تاون الجيل السابق (١٨٩٠) .

وقد تفحصوا كذلك مواد وثائقية كاملة ، وجمعوا معطيات احصائية ، واجروا مقابلات ووضعوا استمارات . وطبقت كل واحدة

(*) Presbyterienne

(٧) Robert S. Lynd and Helen Merrel Lynd, «Middletown», ethnologie de l'Américain moyen. Traduit de l'américain par F. Alter (Carrefour, Paris, 1931).

من هذه التقنيات على الاشكال المختلفة من مادة البحث. ونجد بين الوثائق المكتوبة والمراجعة ، مسوحات عن العلاقات البلدية والمحلية ، ملفات العدالة . مستندات مدرسية ، أدلة ، دوريات ، تقارير عن اجتماعات ، صحف خاصة ، مستندات عن التاريخ المحلي ، قصاصات صحف ، خرائط ، منشورات غرف التجارة والتقارير السنوية للمؤسسات المدرسية الثانوية . وقد تضمن برنامج المقابلة ، عدا المحادثات المتقطعة ، مقابلات محضرة من قبل مخبرين ذوي أهمية ، وتحقيق على عينة من العائلات مستقاة من عالم الاعمال ومن العالم العمالي .

كانت « ميدل تاون » الانتاج السوسيولوجي الاكثر تداولا . فقد أعيد طبعها ست مرات، في السنة التي صدرت فيها ، وتعرضت لمجادلات حادة في كل الولايات المتحدة ، هذا اذا لم نتحدث عن مانسي نفسها . واشتهر مؤلفاها بين ليلة وضحاها . فبعض القراء كان يعتبر هذا المؤلف عرضا لضيق الافق وتفاهة الحياة الريفية وسماها مينكن ، الناقد المؤثر ، « دراسة مملكة السطحية » . بينما كان يرى فيها الاخرون ، وخاصة اشخاص مانسي النافذين ، الدلالة على قوة تكيف نمط الحياة الاميركي . وقد عين لينـد ، بعد هذا المؤلف ، استاذا في جامعة كولومبيا وحصل على كرسي علم الاجتماع عام ١٩٣١ .

في هذه الاثناء ، كانت الولايات المتحدة و « الميدل تاونات » جميعها تتلقى صدمات الازمة الكبرى . وفي عام ١٩٣٥ ، رجعت عائلة لينـد الى مانسي محاطة بفريق هام بهدف دراسة تأثيرات الازمة الكبرى . وقد استعمل البحث الثاني تقنيات اكثر ايجازا وكانت مدة سنتين كافية من اجل نشر (ميدل تاون في طريق الانتقال)(٨) . لقد تطور المؤلفان مثل المدينة اذا لم يكن أكثر . فقد اكتسبا التصور الماركسي للبنية الاجتماعية واعتبرا ان العلاقات المتضمنة في الباب الاول ، « اكتساب العيش » ، تحدد البنية في الابواب الخمسة الاخرى اضافة الى القيم والمعتقدات السائدة . ان الثقة التي اولياها سابقا لنمط الحياة في ميدل تاون تعرضت للانهيار بصورة جدية أكثر بكثير من ثقة السكان انفسهم . ولم تشهد الصورة التي رسماها « لميدل تاون » في ١٩٣٥ على تغير كبير فقط ، ولكنهما عدلا ايضا جدولهما الخاص « بميدل تاون » في ١٩٢٥ ، بطريقة اظهرت الاوجه السلبية بشكل شديد الوضوح .

---

(٨) R. S. LIND and H. M. LIND. MIDDLETOWN In TRANSITION : A study in cultural conflicts, N. Y., Harcourt, BRACE and Company, 1937.

ان جـدة البحث السابق الرئيسية كانت تكمن في تقسيم واضح للسكان بين طبقة رجـال الاعمال التي كانت تستحوذ على القسم الاكبر من مداخيلها من عمل مع الناس وبين طبقة عـاملة كانت تحصل على هذه المداخيل مـن عمل على الالات . ان الانفصال بين الطبقتين كـان أكثر وضوحـا من وعي أفرادهما له . فقـد كانت تطلعات الافراد، حياتهم اليومية ، علاقـاتهم العـائلية ، وبدرجة أقل ، معتقـداتهم السياسية والدينية مختلفة . وفي بعض النواحي ، كانت عـادات الطبقة العـاملة مشابهة لعادات طبقة رجـال الاعمال التي تنتمي الى الجيل السابق . وقـد كانت الابتكارات تظهر أولا لـدى طبقة رجال الاعمال ومن ثـم تنتشر ببطء نحو أسفل الهرم الاجتماعي .

ان القـابلية على التغير الاجتماعي لـم تكن مسألة طبقية فقط . فالاحداث كانوا اكثر تأثرا بها من المسنين ، وكذلك كانت النساء أكثر من الرجال ، خصوصا في طبقة رجـال الاعمال . حتى انه كان يبدو ممكنا وضع تراتبية فظة في الانشطة الاجتماعية : كان الاقتصاد يتطور بسرعة اكثر ، ويـأتي ، مـن ثـم ، بالترتيب ، تطـور أوقـات الفراغ ، التربية ، نشاطـات المتحد الاجتماعي ، النماذج العائلية والمؤسسات الدينية . وكان التكيف مع التغير الاجتماعي يشكلان المسألة الاساسية للنسق في مجموعه . « ان الحياة في ميدل تـاون تظهر على كل المستويات تقريبا امـا تغييرا ، وامـا بعض التوتـر المتأتي من عـدم القدرة على التكيف . ان سكانها لديهم موطىء قـدم في المؤسسات القـائمة الصلبة نسبيا وموطىء قـدم آخر على سلم متحرك لـم يحدد اتجاهه بدقة وتتغير سرعته باستمرار . وفي ظروف كهذه ، يكمن العيش قبل كل شيء في حفظ التوازن » .

في عـام ١٩٢٥ ، كان اسهل على طبقة رجـال الاعمال الحفاظ على هذا التوازن اكثر من العمال ، حتى الوقت الذي انهارت فيه ثقة رجال الاعمال هؤلاء بسبب قلق زوجاتهم واستقلالية أولادهم ، ولم يعد بامكانهم تجاهل العلامات البارزة على مصاعبهم . وكانوا يواجهون هذا الجو القلق بايديولوجية تختلط فيها روح التشرد ، بالمحافظة السياسية ، بتجميل عـالم الاعمال مع ميل عميق للامتثال للوضع القـائم . ومع انها لـم تكن راضية كليا عن هذه الايديولوجية ، في عـام ١٩٢٥ ، فـان الطبقة العاملة لم تحتج عليها بشكل واضح .

في عام ١٩٣٥ ، كانت « ميدل تاون » قد بدات تتعافى من الازمة . ومن البطالة ومن الخسائر التي مني بها الملاكون والمدخرون خلال الاعوام الخمسة الماضية . وكان النمو الاقتصادي قد توقف نهائيا . وكانت ربع العائلات تقريبا المقيمة في « ميدل تاون » تستفيد من الخدمات العامة ، وكانت نسب الزواج والولادات في انخفاض ، كما توقف البناء وتحولت حياة الاعمال بقرارات اتحادية وبتنظيم نقابي متنامي ؛ وكانت قد بدأت تظهر في وضح النهار صراعات القيم — بين مثل الفرد ومسؤوليته الجماعية مثلا .

ولكن الانهيار كان يتبدى قبل كل شيء في تباطؤ التغيير الاجتماعي . فالثقافة في « ميدل تاون » تميزت بالاطارات نفسها في ١٩٣٥ و ١٩٢٥ . والمؤسسة الوحيدة الجديدة كانت برنامج المساعدة العامة . وكان التغيير الاكثر أهمية يبدو في تفكير السكان ، وفي وعيهم للبعد المتنامي بين الحقيقة والرموز التي كانوا يستعملونها لتفسير هذه الحقيقة .

كانت عائلة ليند ، من جهتها ، تشعر باستياء مماثل . اذ ظهرت لها ، من خلال الحياة في « ميدل تاون » ، علامات سلبية كانت قد اسقطتها من الملاحظة او أساءت تقديرها عام ١٩٢٥ . فالدراسة السابقة كانت تعتقد انها تسجل افول الدعارة وكانت قد قررت امكانية بقاء منزلين او ثلاثة منازل سرية . وبعد عشر سنوات اكتشف المؤلفان ان « ميدل تاون » كانت مركزا مهما للدعارة ، وبأنهما لم يلاحظا حيا واسعا من البيوت السرية في الجهة الثانية تماما من الشارع الرئيسي . وتبين لهما بأن قسما واسعا من السكان كان يعيش في شروط سكن تعسة ، بدون تجهيزات صحية ، وبدون تدفئة صحيحة ، وبأن الاكثار من المشروب كان قاعدة عامة ، والمواقف المسبقة من الزنوج كانت متجذرة ، والصحافة المحلية كانت خاضعة للرشوة كما ان النهر كان شديد التلوث .

لكنهما اعادا النظر ، خاصة ، في مفهومهما القديم عن البنية الطبقية ، واهتما بدور عائلة مؤثرة هي عائلة (×) ، كانت على راس الصناعة الاساسية المحلية وكانت تتمتع بهيمنة على المنطقة بكاملها بواسطة العلاقات الاستراتيجية التي كانت تقيمها مع البنوك ، ومع مكاتب المحامين ، ومع الرابطة المدرسية المحلية ، مع الجمعيات الخيرية ، مع الكنائس ومع الحزبين السياسيين . وهذه الرقابة كانت تتدعم خلال

الازمة ، وقد وضع الباحثان موضع التأكيد نشوء طبقة عليا مؤلفة من الصناعيين الاغنياء ، أصحاب المصارف ، الكادرات المحلية الشركات الوطنية ، وغيرهم من الفئات المشابهة . كما ميزا ، في الوقت نفسه ، داخل طبقة رجال الاعمال ، طبقة متوسطة عليا من الصناعيين ، من التجار ، وأعضاء المهن الحرة والكادرات ، وطبقة وسطى دنيا من تجار المفرق ، ومستخدمي المكاتب ومن الموظفين والاجراء ؛ وقد قسم المؤلفان الطبقة العاملة الى ارستقراطية من رؤساء العمال ، والحرفيين ، والتقنيين الموصوفين ، وشريحة ذات أهمية أكبر من التقنيين العاديين والعمال نصف الموصوفين ، وأخيرا ، شريحة سفلى من العمال غير الموصوفين بدون عمل منتظم ، معظمهم من الفقراء البيض القادمين من الجبال القريبة . وبالنسبة لعائلة ليند ، فان هذه التقسيمات الاكثر فأكثر بروزا لم تكن تعني بأن حرب الطبقات كانت وشيكة الوقوع . بل كان يبدو لها أن « ميدل تاون » ، ستبقى ، على الارجح ، حسب عادتها ، في المكان الصحيح ، متكيفة بالرغم منها مع التغيرات التي لا يمكن تفاديها ، واضعة مستقبلها تحت ضربات المساومات والحيل . ان الجملة الاخيرة من « ميدل تاون على طريق الانتقال » تشتمل على مقطع لتاوني يصف انعكاسات الثورة الفرنسية : « كانوا يتقدمون بالرغم منهم ، والانظار موجهة نحو الماضي ، مخافة أن يحصل لهم الاسوا »(٩) .

تيكوبيا

بدأ ريمون فيرث ، وهو عالم اتنولوجيا من أصل نيوزيلندي ، دراسته لشعب التيكوبيا البولينيزي الصغير والذي يعيش في جزيرة صغيرة في الباسفيك (الجزيرة وسكانها يحملون نفس الاسم) ، بسنة عمل على الحقل (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) . وقد باشر ببعثة ثانية في ١٩٥٢ ، وثالثة عام ١٩٦٦ حيث رافقه مساعد شاب . وقد نشر التقرير الاول للبحث بعنوان « نحن ، التيكوبيا » في عام ١٩٣٦ ، وتبعته تقارير أخرى « عمل الالهة في التيكوبيا » ، و « تيكوبيا الطقوس والمعتقدات » التي نشرت في ١٩٦٧ وكان هناك بحث آخر قيد الانجاز . وهكذا فان هذا البحث الوحيد قد شغل محققه الرئيسي خلال اكثر من اربعين

---

(٩) Ibid., p. 510

عامـــا(١٠) .

لقـــد اهتم علم الاجتمـــاع بقوة ، وهو بالكبـاد وليد ، بما كـــان مألوفـــا تـــسميته المجموعات البشرية **البدائية** والتي تسمى الان المجموعات البشريـــة **البسيطة** أو مـــا قبل **الاحرف الابجـــدية** او **الشعـــوب دون كتابة** . هذه الشعوب كانت حـــاضرة في كل نقـــاش حول اصول الحياة الاجتماعية ، لانها كانت تعتبر « الصورة الحية » عن اجدادنا ، وهكذا درس دوركهايم الممارســـات الطوطمية لشعوب الارنتا من اجل فهـــم تطور الدين في المجتمعات المتحضرة(١١) . وقـــد ساعدت هذه المجتمعات كافة علمـــاء الاجتماع تقريبا ابتداء من **كونت** ، باعتبارها « مجتمعات معلبة » من اجل تعيين حدود التنوع في السلوك الانساني ، ومـــن اجل البرهنة على نسبية القيم الاجتماعية ، ومن اجل تحليل التغير الاجتماعي أو الترابط الوظيفي لعناصر النسق الاجتماعي .

ان كل جيل من علمـــاء الاجتمـــاع تميز بعلمـــائه الاتنولـــوجيين المحظوظين وببدائييه المفضلين . في بداية هذا القرن كان دور السكـــان الاستراليين(١٢) ؛ وخـــلال العقد التالي ، درست الشعوب الهندية في الشمال ـ الغربي من الولايـــات المتحدة من قبل فرانز بوا(١٣) ، وفـــي الاعوام العشرين قبائل التروبريوندي لمالينوفـــسكي (الذي كـــان معلما

---

(١٠) بغض النظر عن الدراســـات الدورية ، فـــان التقارير الرئيسية في هـــذه الـــسلسلة الطويلة هي :

Raymond Firth, we the Tikopia : A sociological Study of Kinship in Primitive Polynesian Economy, London, Georges Routledge and Sons, Ltd, 1939; Social change in Tikopia: Re-study of a polynesian Comniunity After Generation, New York, the Macmillan Company, 1959; History and Traditions of Tikopia, Wellington, New Zealand, The Polynesian Society incorporated, 1961; Essays on Social Organization and Values, University of London, The Athlone Press, 1964; The Work of the Gods in Tikopia, University of London, the Athlone Press, 1967; Tikopia Ritual and Belief, London, George Allen and Unwin Ltd; 1967. Un autre volume Rank and Religion in Tikopia est en préparation.

(١١) Emile Durkheim, Les Formes élémentaires de la vie religieuse, op. cit.

(١٢) لقد استند دوركهايم بشكل خـــاص على : Baldwin Spencer and F.J. Gillen, The Native Tribes of Central Australia, London, NewYork, The Macmillan Company, 1899, and the Northern Tribes of Central Australia, London, New York, The Macmillan Company, 1904.

(١٣) Franz Boas, The Kwakiutl of Vancouver Island, New York, stechert 1909; Race, Language and Culture, New York, Macmillan 1904.

لفيرث)(١٤) . ولقد برهنت مرغريت ميد، بعد فترة وجيزة من الزمن، عن وجود علاقات بين ممارسات التشريك (الاجتماعي) والانماط المختلفة من الشخصية في الساموا وفي مجتمعات ثلاثة من غينيا الجديدة(١٥) . ولقد بيّن روث بنيديكت ، باختياره اتجاها مماثلا ، وجود قيم متصارعة عند الهنود في الجنوب ـ الغربي من الولايات المتحدة(١٦) . ورسم روبرت ريدفيلد عملية تحول المجتمعات التقليدية من الحياة الطقسية الى الحياة العلمانية في مكسيكو(١٧) . ولم تفقدو تيكوبيا فيرث مصدر اختيار لعالم الاجتماع الا مع ظهور عملين سوسيولوجيين استقيا منها بسعة ، في بداية الاعوام الخمسين : **المجموعة الانسانية**(١٨) لـ جورج هومنز **والدين لدى البدائيين** لـ ويليم ج. غودي ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت تيكوبيا جد مألوفة ، تقريبا ، لدى طلاب علم الاجتماع مثل « شيكاغو » او « ميدل تاون » .

انها نموذج رائع ومختزل للمجتمع . اذ تنتصب الجزيرة وحيدة في وسط المحيط الباسفيكي ، على بعد ١١٥ كلم من أقرب نقطة للشاطىء ، وعلى بعد مئات الكيلومترات عن أية مجاورة مهمة . ولا يتجاوز طولها ١٠ كلم وكان عدد سكانها يبلغ ١٢٠٠ شخص فقط عام ١٩٢٨ . وكانت العلاقات مع العالم الخارجي شبه معدومة ؛ وكانت تؤمها احدى البعثات مرة واحدة في السنة . ومع ان نصف السكان كانوا يعتبرون مسيحيين ، فانه لم يعش في هذه الجزيرة اي انسان أبيض الا لبضعة أشهر . والجزيرة مسكونة من قبل البولينيزيين ، الضخمين ، ذوي البشرة الفاتحة والذين توجد فيهم كل مميزات الجمال حسب مقاييسنا الاوروبية . ومنذ البدء كانت الجزيرة تكفي ذاتها بذاتها . وتشمل مساحتها الضئيلة جبلا كبيرا ، بحيرة داخلية ، مستنقعات ومناطق صحراوية ، شواطئا وصخورا من المرجان . وكانت تيكوبيا تقدم ، عام ١٩٢٨ ، بحدودها الضيقة ، بنية

---

(١٤) Bronislaw Malinowski, Les Argonautes du Pacifique occidental traduit de l'anglais et présenté par André et Simone Devyver, Paris, Gallimard, 1963.

(١٥) Margaret Mead «Adolescence à Samoa» in Mœurs et Sexualité en Océanie, fraduit de l'américain par Georges Chevassus, Paris, Plon, 1963.

(١٦) Ruth Benedict, Echantillons de civilisations, Paris, Gallimard, 1950.

(١٧) Robert Redfield, Teptozlan, a Mexican Village; a study of Folk Life, Chicago, University of Chicago Press, 1941.

(١٨) George C. Homans, The Human Group, New York, Harcourt, Brace and Company, 1950.

اجتماعية وثقافية كانت درجة صفاءها جديرة بحضارة كبيرة. كما كانت تمتلك لغتها الخاصة (القريبة من الماوري) ، وأدبها الشفهي ، وميثولوجيتها ، ومجمع لآلهتها ودورة من الاحتفالات الدينية كانت توفر للرؤساء ما كان يشغلهم طوال السنة .

وقد انقسم السكان الى طبقتين ، الرؤساء وأفراد الشعب ، حيث وجد في داخلهما تراتب واضح من المراكز وامكانيات للحركية العامودية . وبالاضافة لذلك فقد كان السكان منقسمون الى أربع قبائل ، لكل منها رئيسها الخاص ، طقوسها وعاداتها المتميزة . وقد كان بالامكان تمييز **البيوت**(*) في كل قبيلة وهي وحدات منزلية أكبر بقليل من العائلة النواتية ، ولكل منها تقاليدها . وكان السكان يتوزعون الى مجموعتين متنافستين موجودتين في الجهات المتقابلة من الجزيرة ، واحدة منهما مؤلفة غالبيتها من المسيحيين بالاسم والاخرى من الوثنيين .

اما تنظيم العمل فقد كان معقدا . فقبائل التيكوبيا كانت تصطاد، في الوقت ذاته ، في البحر وفي أرصفة المرجان . وكل نوع من الصيد كان يتطلب تعاون عدد كبير من الاشخاص وكفاءات تقنية جيدة . بالاضافة الى ضرورة معرفة توزيع الارباح بمكافأة الرأسمال والعمل وتنظيم التصنيع وصيانة وتخزين مواد الصيد . كما كانوا يزرعون القلقاس ، واشجار الخبز ، وجوز الهند ، والموز ، والنخل ، والاتيام(**) ، وكل الحصاد الهام كان يوضع تحت حماية أحد رؤساء القبائل الذي كان مسؤولا عن التنفيذ الجيد للطقوس والاحتفالات الخاصة بهذا الشكل من الزراعة وعن المحافظة على الانتاج في مستواه المرتفع . ومع ان النقود لم تكن موجودة عند قبائل تيكوبيا فانهم كانوا يستخدمون نسقا ناضجا من حقوق الملكية ومن اجراءات الايجار ، والاقراض وتبادل المواد المتداولة .

ان العلاقات العائلية لدى قبائل التيكوبيا شبيهة جدا بعلاقاتنا . فالحسب أبوي ، والاملاك العقارية ، — وليس الاملاك الشخصية — ، موروثة من قبل الخلفاء الذكور . وهم يمارسون على العموم الزواج الاحادي مع أن الزواج المتعدد مسموح . ان توزيع السلطة بين الزوج والزوجة وبين الاهل والاولاد يشبه تقريبا الشيء الذي نعرفه ، مع ان عند قبائل التيكوبيا ، بعض علاقات القرابة المجهولة بالنسبة لنا ، كعلاقة

---

* البيت : كان يقال بيت فلان من عائلة فلان ، أي ما يشبه الجب في تركيب العائلة العربية . (المترجم) .

(**) جنس نباتات معمرة درناتها نشوية تؤكل ، كما يفيد « المنهل » .

الولد بالخال ، والاجراءات التي تنتج عنها : كاستبدال الخال بأحد اقارب الام عندما يخطىء الاول .

لقد شكلت مؤسسات المجتمع التيكوبي درجة عالية من التماسك وكان رئيس القبيلة في الوقت نفسه منظما ، ورئيسا للعائلة ، وكاهنا كبيرا لعبادة خاصة ، ورئيسا لمجموعة ، وقاضيا للسلام وحاميا لكل الناس . وكان المركز الاجتماعي والدين والانتاج الاقتصادي شديدي الارتباط .

ان تيكوبيا ، هي ، على الارجح ، الاخيرة بين المجتمعات البولينيزية البدائية الاصيلة في بحار الجنوب ، التي قاومت الاجتياح الكثيف للاوروبيين ، الذي ابتدأ مع بعثة الكابتين كوك في نهاية القرن الثامن عشر ، والذي ما انقطع منذ ذلك الحين . وترجع مناعتها هذه الى عزلتها الغريبة ، والى النقص في الامان في مرفئها والى شهرتها بعدم الضيافة . ولكن احتكاكات تيكوبيا تضاعفت مع العالم الخارجي من ١٩٢٩ حتى ١٩٥٢ . وذلك بسبب ترك الشباب للجزيرة في سبيل العمل واتيانهم بكمية كبيرة من المعدات الاوروبية والاجهزة المنزلية والملابس . وقد ظهرت النقود . وكثفت البعثات جهودها . وفي عام ١٩٥٢ ، هدد اعصار مفجع السكان بالمجاعة ودمر البنية الاجتماعية حتى جذورها . وفي عام ١٩٥٥ أيضا ، وعلى اثر وباء ، اعتنق ، الرؤساء الثلاثة للقبائل **الوثنية ، المسيحية** . واختفى فجأة الدين القديم . وخلال زيارة فيرث الاخيرة عام ١٩٦٦ ، لم تعد تيكوبيا معزولة ومقدسة ولم تعد تكفي ذاتها بذاتها مع أنها لا زالت ، دائما ، بعيدة وجميلة . وقد طبع شعور بالخسارة لا يعوض ، التقرير الدقيق والحذر الذي وضعه فيرث عن هذا التطور .

ان دراسات فيرث عن تيكوبيا تشهد بأحسن ما في علم الاتنولوجيا الحديث : الرغبة في العيش مع السكان المدروسين ، وتعلم لغتهم ، والمشاركة في احتفالاتهم ، وصبر متناهي في ملاحظة واستجواب ومسح وكشف كل سمة من حياة السكان الاصليين .

ان ما تعلمه هذه الابحاث هو كبير بالنسبة لعلماء الاجتماع : فمجتمع تيكوبيا تمتع بوصف اشمل اكثر من أي مجتمع آخر ، وقد أصبح مفهوما بكامله تقريبا .

واذا أعتبرنا ان المجتمع التيكوبي **ممثل** للمجتمعات البسيطة ، فاننا نصل الى عدد معين من الخلاصات المؤقتة .

في بادىء الامر يبدو انه لا يمكن التحدث عن عقلية بدائية . فقبائل التيكوبيا تتصرف مثلنا في الصدامات ، وفي المزاح الخطر ، وفي الخطب السياسية ؛ وهي على الارجح أكثر دقة من الغالبية بيننا ، في نظرتها للعلاقات بين الاشخاص . وثانيا ، ان التمايزات الطبقية الموجودة ملائمة للتضامن والاندماج الاجتماعيين اللذين لا مثيل لهما باعتبار ان كل الناس متعارفين ، والعنف محرم فعليا . وثالثا ان روابط الواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة ، الاهل والاولاد ، الاحداث ، البالغين ، الرؤساء وعامة الشعب، هي التي تحافظ على تماسك المجتمع . وطالما ان المتعاقدين، في كل أنواع الاتفاقات المتضمنة تبادلا ، يقبلان التزاماتهما ولا زالا جديران بالوفاء بها ، فان التوازن يبقى محفوظا . رابعا ، ان كل المؤسسات الاجتماعية تابعة الواحدة منها للاخرى . ولا تهيمن أيا منها على غيرها . خامسا ، ان ترابط المؤسسات لا ينطوي على استحالة التغير المجزأ . ان الدين التقليدي اختفى من تيكوبيا دون ان يتأثر بذلك البنية الاجتماعية ونظام القرابة ، في تلك اللحظة .

تجارب هاوثورون

لقد أنجزت تجارب هاوثورن ، المعروفة أيضا باسم أبحاث في « الوسترن ألكتريك » ، في مشاغل مصنع « وسترن الكتريك كومباني » ، في هاوثورن قرب شيكاغو ، من ١٩٢٧ حتى ١٩٣٢ ، تحت ادارة مشتركة لكادرات الشركة وفريق من باحثي جامعة هارفرد بقيادة ألتون مايو . ونشر التقرير النهائي لهذا البحث ، « الادارة والعامل »(١٩) ، في عام ١٩٣٩ بواسطة روسليسبرغر وديكسون ، ولكن خلاصة للنتائج كانت قد قدمت قبل بضعة أعوام في مؤلف مايو : « المشاكل الانسانية للحضارة الصناعية »(٢٠) ، بالاضافة الى تقرير احصائي طويل كان قد نشر من قبل وايتهيد(٢١) .

---

(١٩) F. J. Roethlisberger and William J. Dickson (avec la collaboration de Harold A. Wright), Management and Worker, Cambridge, Mass. Harvard University Press, 1939. Une représentation et des réflexions sur cette enquête se trouvent dans G. Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, Paris, Gallimard, pp. 287-309.

(٢٠) Elton Mayo, The Human Problems of an Industrial Civilization, New York, the Macmillan Company, 1933.

(٢١) T. H. WHITEHEAD, The Industrial Workers, a Statical Study of Human Relations in a Group of Manual Workers, Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1938, 2 vol.

ومع ان مـايو قدم نسخة مبسطة للنتائج . الا انه وضع هـذه النتائج ضمن تصور عريض ، مبينا روابطها مع المفهوم الدوركهايمي عن اللاانضباطية ومع الفكرة ، العزيزة على باريتو ، المتعلقة بأهمية العمليات غير المنطقية في السلوك الشائع ، ولكنه حدد موقعها ايضا بالنسبة لمدرسة علم البيئة في شيكاغو ، وبالنسبة للمراحل الاولى لدراسة يانكي سيتي . وللنظريـات النفسية لجانيه ، فرويد ، وبياجيه ، وايضا بالنسبة لسلوك السكان الاصليين الاستراليين وقبائل تروبرياندي .

لقد استند مـايو الى مواضيع مستقاة من هذه المصـادر المختلفة وعلى نتائج تجـاربه في هاوثورن ليدعم نقطة مركزية من نظرياته ، تقول بـأن توفر مستوى مرتفع مـن الكفـاءة والمعارف فـي ادارة الموظفين هو أمر ضروري للصناعة لان وجود شبكة ضيقة من الاتصال والتعاون هو ايضـا شرط لا بـد منه لانتاجية فعـالة كما هو اساسـي من أجل السعادة الشخصية للشغيلة .

ان « الوسترن الكتريك » هي فرع من « الشركة الاميركية للهاتف والتلغراف » وهي التي تؤمن القسم الاكبر من احتياجـات هذه الاخيرة . ان مشـاغل هاوثورن كـانت تشكل (ومـا تزال) جهـازا عملاقـا ينتج بواسطة نظام العمل المسلسل تجهيزات هاتفية . ان الجزء الاكبر ، من اليد العاملة كان يتشكل ، في زمن البحث ، من المهاجرين أو المتحدرين من المهاجرين . كما أن نقـابة « مدجنة » ، دون فعالية ، قـد وجدت ، ولكن ليس نقـابية جدية .

وتنحدر ابحاث مـايو من بحث سابق عليها حول التعب الصناعي منجز مـن قبل مختبر جـامعة هارفرد . وكان مـدير هذا المختبر في ذلك الوقت لورنس ج. هندرسن وهو كيميائي كـان يعلم ، بالمناسبة ، علم الاجتماع ويشغل منصبا مهماً في تاريخ البحث السوسيولوجي في الولايات المتحدة . وقد شجع ودعم الاعمال الاولى لـ بارسونز ، ووايت ، وبارنـارد ، ووارنر ، وآرنسبرغ ، وهومنز . وقد جـاء مايو الى هارفرد واصبح مساعد هندرسن عام ١٩٢٦ ؛ وانطلق في السنة اللاحقة في تحقيق « وسترن الكتريك » .

تتضمن تجـارب هاوثورن خمس دراسـات مستقلة ، تستعمل كل واحـدة منها طريقة مختلفة ولكنها تلتقي كلها في استنتاج ان مردوديـة

العمال محـددة ، بقوة ، بطبيعة العلاقـات الاجتماعية التي يقيمونهـا مع زملائهم ومع الجهاز المشرف :

وقد حملت الدراسات العناوين الخمسة التالية :

١ ــ تجـارب الاضاءة .
٢ ــ غرفة ملاحظة تركيب المقويـات .
٣ ــ فريق شق الطلق(*) .
٤ ــ حملة المقـابلات .
٥ ــ غرفة ملاحظة الكـابل .

١ ــ تجارب الاضاءة :

أنجز موظفو « الوسترن ألكتريك » هذه التجارب الاولى قبل قدوم فريق هارفرد . وكانت التجارب هـذه تبحث عن العـلاقة بين الاضاءة والانتاجية . ففي خـلال التجربة الاولى ، رفعت ، على دفعات صغيرة ، قوة الاضاءة في ثلاثة مشاغل مخصصة لأعمال مختلفة . ولقـد دفع هذا التحسن في الاضاءة الى زيادة الانتاجية ، في مشغلين ، دون ان يصطحب ذلك بأي تأثير في الثالث . وفي التجربة التالية ، تم اختيار فريق واحـد يعمل في ظل تنوع نظـام الاضاءة . ولقـد جهز بدقة مع فريق مراقبة حيث بقيت الاضاءة محافظة على ثباتها قـدر الامكان . وكانت النتائج مفاجئة . فقد شهـدت المجموعتان زيـادات في الانتاج هامة ومتماثلة تقريبا . وفي التجربة الثالثة ، وضعت مجموعة الاختبار ومجموعة المراقبة في نظام اضاءة مصطنع، بهدف ابعاد التغيرات الناتجة عن ضوء النهار . فخفضت الاضاءة تدريجيا في أمكنة فريق الاختبار . ومن جديد أرتفعت انتاجية هذا الفريق وفريق المـراقبة بالنسب ذاتها . وكـان يتوجب انتظار انخفاض الضوء لدى فريق الملاحظة، بحيث تصبح رؤية مواد العمل بالكاد ممكنة ، كي يبدأ الانتاج بالهبوط . ومـا تم استنتاجه من هـذه التجارب هو أن الاضاءة بحـد ذاتها لـم يكن لها الا تـأثيرا ضئيلا على الانتاجية وبـأن الزيادات الملاحظة في الانتاجية يجب أن تنتج عن عوامل اخرى كانت قـد أدخلت بمعزل عن كل ارادة . في هذه المرحلة مـن

---

* حجر لامع ذو صفائح ، عن « المنهل » .

التحقيق دخل محققو هارفرد المسرح وابتدات بجدية عملية البحث عن العوامل التي كانت خافية على التحليل والتي مع ذلك كانت تؤثر على الانتاجية .

٢ ــ غرفة ملاحظة تركيب المقويات :

من أجل هذه التجربة ، تم اخراج ست عاملات ملحقات بالمهمة نفسها من مشغلهن المعتاد ، وتم وضعهن في الغرفة التي كانت تستعمل لاختبارات الاضاءة . ولقد ألحق بهن ملاحظ كان يسجل كل ما كان يحدث في هذه الغرفة كما أن الاجهزة المتخصصة كانت تسجل على الدوام انتاجية كل واحدة منهن (ما عدا العاملة السادسة التي كانت تشارك في العملية الاخيرة للتركيب والتي لم يكن بالمستطاع قياس انتاجيتها) . كان العمل يرتكز على جمع مقو مؤلف من خمسة وثلاثين عنصرا تقريبا بأحجام صغيرة وعلى تثبيته بمسامير ميكانيكية . وقد تطلبت العملية هذه مهارة متميزة وكانت تستمر ، على التقريب ، دقيقة واحدة ، مما جعلها مثالية لقياس التغييرات الطفيفة في الانتاجية .

وابتدأ الباحثون بطرح ستة أسئلة محصلة من البحث الاول حول التعب ، على أنفسهم ، مع انهم كانوا يتوقعون أن لا تكون امكانية التعب هي العامل الحاسم في تغييرات الانتاج . والاسئلة كانت :

١ ــ هل تتعب المستخدمات بافراط حقا ؟
٢ ــ هل فرص الراحة مستحبة ؟
٣ ــ هل ان تقصير يوم العمل مرغوب به ؟
٤ ــ ما هي اتجاهات العاملات تجاه عملهن وتجاه المنشأة ؟ وما هي التأثيرات التي يسببها تغيير ما في نمط جهاز العمل ؟
٥ ــ لماذا ينخفض الانتاج بعد الظهر ؟

لقد استمرت التجارب من نيسان ١٩٢٧ حتى حزيران ١٩٢٩ . وقد وزعت التجارب هذه على ثلاث عشرة مرحلة ، وكل مرحلة على بضعة اسابيع . في المرحلة الاولى تمت ملاحظة العاملات المختارات في مشغلهن العادي . وبعدها وضعن في غرفة الملاحظة ، وتمت مكافأتهن حسب قاعدة جديدة من الاجر ؛ فالاجر بالنسبة لكل واحدة منهن أصبح يتعلق بالانتاج العام للمجموعة . وقد سمح لهن بانقطاعات عن العمل في الصباح وبعد

الظهر . وقدمت لهن المرطبات على حساب الشركة ، وقصّر يوم عملهن وفيما بعد قصر اسبوع عملهن . في المرحلة الثانية عشرة اعيد وضعهن في شروط عملهن الاولية (ساعات عمل كاملة وبدون امتيازات) . وفي المرحلة الثالثة عشرة ارجعن الى دوام يتضمن استراحتين مهمتين ، ومرطبات مقدمة من قبل الشركة ، دون تقصير ساعات العمل . عند ذلك . ادى الانخفاض في الطلب على الاجهزة الهاتفية الجديدة الى وضع حد للتجربة . وهاك ما كانت النتائج :

١ ـ في الاجمال ، كانت انتاجية دوام العاملات تميل الى الارتفاع عند كل تغيير في شروط العمل ، وذلك حتى المرحلة الثانية عشرة ، عندما سحبت منهن كل تحسينات شروط العمل التي تعودن عليها . عند ذلك بقي انتاجهن الوسطي ، رغم انخفاضه ، فوق مستواه لحظة انطلاق التجربة .

٢ ـ ان انقاص ساعات العمل كان يدفع ، في بعض الحدود ، الى تحسين المردود الذي كان يكفي للحفاظ على الانتاج العام اليومي أو توسيعه . هذا التأثير لم يكن غير محدد ؛ فعندما كان يوم العمل يقلص اكثر من ساعة ، كان الانتاج اليومي العام ينخفض .

٣ ـ عندما كان في استطاعتهن اختيار شروط عملهن ، اظهرت العاملات افضليات واضحة ، كاختيارهن مثلا استراحة واحدة وطويلة وليس انقطاعات قصيرة ، أو تفضيلهن لأسبوع من خمسة أيام ، مع نهار عمل طويل اكثر ، من اسبوع مؤلف من خمسة أيام ونصف اليوم ومع دوام عمل اقصر .

٤ ـ لم تكن العاملات كلهن متحسسات للعوامل التي ستحسن الانتاجية . فقد اظهرت عاملتان في بداية التجربة خلال المرحلة السابعة نقص في التعاون وتم ابدالهن .

وحسب المحققين ، فقد كان تفسير التحسين العام للانتاج ممكنا ، وفقا لخمسة طرق مختلفة . فأولا يمكن ان ينتج عن تحسين الاضاءة والتهوية في تقنية التركيب المستعملة لحاجات أجهزة التسجيل . ولقد أبعد الباحثون هذه الفرضية ، لان الاضاءة والتهوية هما بالكاد أفضل في غرفة الملاحظة منهما في المشغل الاصلي ولان تجارب الاضاءة لم تستطع البرهنة بشكل مقنع على وجود علاقة بين الاضاءة والانتاجية .

والتحسين الخفيف لتقنية التركيب لم يبدو هو أيضا ملحوظا ؛ مع انه لم يكن بالامكان ، كليا ، استبعاد واقع أن عاملات غرفة الملاحظة كن يشتغلن على أنواع من المقويات اقل عددا . وثانيا كان يعتقد بأن ادخال الفرص وتقصير ساعات العمل يجلبان الراحة اثر التعب المتراكم الذي كان يظهر بعد فترة من الوقت . ولكي يتوافق هذا التفسير مع المستوى المرتفع نسبيا للانتاج خلال المرحلة الثانية عشرة ؛ حيث كانت العاملات قد عدن الى الشروط الاساسية للعمل ، كان لا بد من القبول بأن تحسين وضعهن الجسدي هو ضروري بحيث انه سمح لهن بتحمل الجهد الاضافي الناتج عن ساعات العمل الاطول وعن عدم توفر امكانية للراحة . كما كان هناك تفسيرا ثالثا ، وهو ان ادخال فترات من الراحة اضافة الى ساعات عمل أقصر ، يخفف من رتابة الاعمال أكثر مما يخفف من التعب ، وذلك من خلال تسهيله امكانيات الاتصال بين العاملات ومن خلال تأمين أجر لهن يتناسب مباشرة مع الانتاج ويشجع على العمل الجماعي الحقيقي . الاحتمال الرابع ، يقوم في ان النظام الذي كان يدمج العمل على القطعة مع عمل الجماعة ، والذي بوشر به في غرفة الملاحظة ، كان يدفع الى ازدياد الانتاج .

اخيرا ، فان نمو الانتاجية وتحسين سلوك اتجاهات العاملات في غرفة الملاحظة يمكنهما ان يكونا مرتبطان بتغيير تدريجي لنمط مراقبة جهاز الاشراف ، وهذا الاحتمال الاخير يشكل الفرضية الخامسة . وقد وفرت التجربة للعاملات ولجهاز الاشراف فرصة للتعاون ووسائل لاقامة علاقات عمل فعالة . الى جانب ان الملاحظ في غرفة الملاحظة ، كان قد أخذ دور رئيس العمال في الوقت الذي تابع فيه الاستفادة من ثقة العمال الكاملة .

لقد تم اعتماد هذه الملاحظة الاخيرة كأمر مسلم به بالرغم من انها ليست ملحوظة في بحث « **الادارة والعامل** » . وبدا من المؤكد تقريبا ان تحسين شروط العمل وتخفيف التعب الجسدي لا يكفيان لتفسير ازدياد انتاجية غرفة الملاحظة بل ان القاعدة الجديدة التي حسب على أساسها الاجر شكلت بالتأكيد عاملا مهما وان تخفيف رقابة العمل يمكنه أن يلعب دورا ما ايضا . وفي الواقع فان التأثير المحرك للاجر قد تم تأكيده ، تقريبا ، خلال تجربة ذات أهمية أقل ، سميت المجموعة الثانية لتركيب المقويات ، حصلت في خلالها خمس عاملات لم تكن شروط عملهن قد

تغيرت أبدا . على نفس قواعد الاجر الخاصة بغرفة الملاحظة ، وخلال كل المرحلة المتعلقة بتغيير الاجر فان انتاجهن ارتفع بشكل محسوس ؛ ليعود فينخفض الى ما دون الوسط عندما اعتمدت القاعدة القديمة للاجر من جديد .

٣ ــ غرفة ملاحظة شق الطلق :

لقد استخدمت العاملات الموجودات في غرفة الملاحظة في عمل يتطلب تخصصا جد متقدما ومدفوعا على القطعة . وقد تمت التجربة في شروط شبيهةبشروط التجربة السابقة ، مع أن مدتها كانت أطول قليلا . ومع أن أي تغيير لم يطرأ على نمط حساب الاجور . وقد كانت العاملات هنا أكبر سنا من اللواتي اشتغلن في تركيب المقويات ، وفي حين كانت غالبية العاملات في التجربة السابقة من أصل بولوني ، فان عاملات التجربة الحالية كن من أصول اما المانية واما نمساوية .

لقد امتدت التجربة على خمس مراحل مختلفة ، من آب ١٩٢٨ حتى أيلول ١٩٣٠ . وابتدأ الباحثون بملاحظة العاملات في مشغلهن العادي ، ثم قاموا بنقلهن الى غرفة الملاحظة حيث أجروا سلسلة من التحسينات المتتالية على شروط عملهن . ان ادخال الفرص ، خلال المرحلة الثالثة ، قد دفع الى زيادة الانتاجية التي استمرت حتى المرحلة الرابعة . ومن ثم ابتدأت الانتاجية بالتدني وهبطت الى ما دون المستوى الاساسي . وفسر الباحثون هذا التدني بقلق العاملات على مستقبلهن ، اذ انه كانت مطروحة امكانية نقل عمل الطلق الى مصنع آخر ، ومن ثم الغائه نهائيا . بالاضافة الى أن هاتيك العاملات ولأسباب مختلفة ، لم يؤلفن أبدا مجموعة . فاستمررن بالعمل دون الاهتمام بانتاج الاخريات ودون اللجوء الى أي نشاط جماعي خارج العمل .

ولم يستطع الباحثون تحديد الى أي مدى يمكن نسبة الاختلافات الملاحظة في الانتاج بين الجماعتين ، الى واقع ان مركبات المقويات كان أجرهن يدفع حسب انتاجيتهن الجماعية ، بينما كانت عاملات الطلق تكافأن بالارتباط مع مردوديتهن الفردية ، والى أي حد تعود هذه الاختلافات الى اختلاف الاطار السوسيولوجي . بالاضافة الى أن الباحثين كانوا يدركون ان هذين العاملين مترابطين .

٤ ــ حملة المقابلات :

ان حملة المقابلات في « وسترن ألكتريك » تعود في أصلها الى النقص المكتشف في المعلومات حول معنويات العمال وذلك بمناسبة دورات تأهيل جهاز الاشراف ، كما تعود أيضا ، الى تأكيد الرابط بين شكل المراقبة ومعنويات العمال في غرف الملاحظة . وقد انقسمت حملة المقابلات الى مرحلتين : دراسة رائدة أجريت في أحد مصانع الشركة بين أيلول ١٩٢٨ وشباط ١٩٢٩ ، وحملة دائمة تتضمن أكثر من ٢٠ ألف مقابلة مع مستخدمي الشركة ، في ١٩٢٩ وفي ١٩٣٠ . وانقطعت الحملة ، مثل باقي التجارب ، في ١٩٣١ على اثر انخفاض النشاط المصنعي ، ولكنها استؤنفت عام ١٩٣٦ ، وشكلت منذ حينه ، تحت عنوان الاستشارة ، عنصرا دائما لادارة المستخدمين في مصانع هاوثورن(٢٢) .

في بداية الحملة ، رجع المحققون الى دليل المقابلة الذي يتضمن مواضيع كان يبدو ان لها علاقة بالمعنويات : التدفئة والتهوية وحجرة الثياب ، مخاطر الحوادث ، المنافع المالية وامكانيات التقدم . ولكنهم كانوا يجدون صعوبة في جعل الاشخاص المستجوبين يتقيدون بالموضوع ، وكانت اكتشافاتهم ، عندما تخرج المقابلة عن الاطار المفروض ، تقدم من الاهمية والفائدة اكثر مما لو انها انحصرت بالمواضيع المقترحة . وعلى اثر نقاشات عديدة ، اعتمدت تقنية جديدة للمقابلة تسمى **مقاربة غير مباشرة** وهي معروفة اكثر في الوقت الحاضر باسم **مقابلة غير موجهة** . والشخص المستجوب يمكن ان يتناول اسئلة من اختياره ويترك له المحقق حرية متابعة حبل افكاره دون ان يحاول مراقبة المحادثة . هذا التغيير في التقنية كان له تأثير فوري على تمديد الوقت المتوسط للمقابلة من ثلاثين الى ثمانين دقيقة وعلى زيادة محضر المقابلة من الصفحتين والنصف الى عشر صفحات . ان تملك امكانية التحدث بحرية مع محقق خلال ساعات العمل والتمكن من البوح بالمسائل لشخص غريب لطيف ، يبدو

---

(٢٢) ثمة وصف لبرنامج المقابلات في مشاغل هاوثورن قدم ، بعد مرور عشرين عاما ، من قبل :

Jeanna L. Wilenski et Harold L. Wilensky dans «Personnel Counseling: the Hawthorne case», American Journal of Sociology, 57 (3), Novembre 1951, pp. 265-280.

انه كان لهما أثر جيد على معنويات العمال على الاخص . هذه النتيجة هي التي لفتت الانتباه خاصة ، وعندما استأنفت حملة المقابلات فيما بعد في مشاغل هاوثورن ، فانها كانت موجهة لهذه الغاية قبل كل شيء . ولكن الحملة كان لها أهداف أخرى في الاصل .

ان المعلومات الموجودة في هذه الالاف من المقابلات وضعت للاستفادة منها في تكوين جهاز الاشراف وفي وضع السياسة الخاصة بمستخدمي المنشأة . ان شكاوى العمال لم تكن تعتبر من انتاج المزاج السيء فقط . فالمئات منها درست بعناية وسمحت ببعض التحسينات . فعمال التلحيم مثلا ، اشتكوا من التهوية بعد وضع نظام تهوية فعال . ولقد تم اللجوء الى امتحان متقدم أكثر لشروط العمل فتبين أن نظام التهوية بالمراوح ، الذي كان قد اقيم ، كان يرسل بخارا ودخانا في وجه العمال ، وبالتالي فقد كان من السهل نسبيا تصحيح نظام التهوية والغاء سبب المطالب .

لقد استطاع « جهاز التحليل » ، في الفريق ، استخراج ثمانين الف اقتراح تقريبا من المقابلات التي أجريت خلال العام ١٩٢٩ ، وقد صنفها من جهة حسب مقدار الالحاح ومن جهة ثانية ، حسب اللهجة الايجابية او السلبية التي تميزها . لقد كان هذا اول تحليل للمحتوى على نطاق واسع لم ينجز مثيلا له . وقد صنفت الشكاوى حسب نظام يذكّر بنظام باريتو ؛ ففي الفئة ــ أ ــ وضعت الشكاوى الذاتية ، وفي الفئة ــ ج ــ : الشكاوى غير المنطقية ، وفي الفئة ــ ب ــ : الشكاوى التي يمكن تأكيدها موضوعيا . وقد قاد نظام التصنيف هذا المحققين ليميزوا بين محتوى **ظاهر** ومحتوى **مستتر** للشكاوى ويستنتجوا بأن المحتوى المستتر ، اي اتجاه المستجوب ، كان أكثر دلالة غالبا . بمعنى آخر ، فان العامل الذي اشتكى يوما من المطعم ، ويوما آخر من رئيسه ، يمكن ان يكون قد عبّر في المرتين عن الاتجاه الضمني نفسه .

هذا التحليل الضخم كان له نتيجة رئيسية وهي الاكتشاف بأن المظاهر الاكثر مادية لشروط العمل ليس لها وزن وقيمة الا عبر مدلولها الاجتماعي . هذا الشيء نفسه ينطبق على كل العمال . ومن أجل فهم شكاوى العامل ودوافع ارتياحه ، يجب بالضرورة الاخذ بعين الاعتبار اربع فئات مستقلة من الوقائع : التنظيم الاجتماعي الذي يندرج ضمنه عمله ، الاحداث ، الاشياء والاشخاص الذين يشكلون محيطه ، ــ وضعه الخاص ضمن التنظيم ــ ، والنظام الاجتماعي الخارجي الذي يحدد توقعاته .

٥ ــ غرفة ملاحظة الاسلاك (الكابل) :

ان التجربة الاخيرة لهاوثورن كانت تتضمن دراسة مفردة لمشغل وكان عليها أن تدرس التفاعلات الاجتماعية وسلوك العمال . وفي سياق التدريجي ارتكز التحقيق على ظاهرة الكبح الارادية للانتاج بواسطة مجموعة من الازواج غير نظامية .

فقد نقلت مجموعة من العمّال (ولا امرأة من بينهم) من مشغلها الى غرفة متخصصة لمتابعة العمل نفسه تحت الملاحظة . وكان عملهم يتطلب تركيب كابلات نهائية على المقاسم الهاتفية . وقد تألفت المجموعة من أربعة عشر عاملا ، تسعة من عمال الكابل ، ثلاثة ملحمين واثنين من المراقبين ، بالاضافة الى ملاحظ هو نفسه مُراقَب لكي لا يتجه تدريجيا الى أخذ دور اداري . وامتدت هذه التجربة الاخيرة من تشرين الثاني ١٩٣١ الى أيار ١٩٣٢ ، وانتهت بسبب توقف الطلب . وقد بقي نظاما الدوام وأجور العمال دون تغير .

ان نظام الحث على زيادة الانتاجية ، والمستعمل في حساب الاجور ، كان يتطلب انتاجا متوسطا لسبعة آلاف ومائتي وصلة في اليوم بينما كان العمال قد اوقفوا معيارهم اليومي على ستة آلاف وستمائة . وبفضل اعادة تصحيح مستمر لايقاع العمل ، وبفضل « تهريب » أرقام الانتاج ، فان الغالبية من العمال كانت تنجح في تقديم انتاج يومي قريب من هذا الرقم . وباستثناء واحد أو اثنين من العمال الذين لم يكونوا قد اندمجوا بعد ، نهائيا ، في المجموعة ، فان كل عامل كان يتوصل الى تقديم انتاج متشابه تقريبا ، مما يعني بأن البعض منهم كان يأخذ باعتباره انه أنجز كمية من العمل أقل مما هو الامر فعليا ، وبأن البعض الاخر بالغ في تقدير انتاجه ، بينما المجموعة بأكملها كانت مردوديتها أقل اهمية بكثير مما كان بامكانها أن تكون .

ان التنظيم الاجتماعي الداخلي لقاعة الكابل ، خلال فترة استمراره القصيرة ، كان الاكثر تبلورا من كل الانظمة التي كان يمكن ملاحظتها خلال التجارب السابقة في مجموعات العمل النسائية الاقل اهمية . ليس فقط لان المجموعة قد خلقت شبكتها الخاصة من المعايير الهادفة الى ترسيخ الانتاج والى اقامة تضامن بوجه الرؤساء والغرباء ، ولكن لان المجموعة انقسمت أيضا الى « زمرتين » ، الواحدة متفوقة

بوضوح على الاخرى وكل واحدة منهما قدمت نموذجها الخاص في التفاعل . وقد تم تحليل هذا المجتمع المصغر ، ببراعة ، بعد بضع سنوات . من قبل جورج هومنز(٢٣) ؛ حيث بيّن بشمولية أكثر ، كيف ان النسق الاجتماعية تدافع عن نفسها ازاء الضغوطات الخارجية ، وتنمي الاختلال الداخلي اللاحاسيس والنشاطات التي تضمن الخضوع لمعايير المجموعة ، وتوزع التعويضات الاجتماعية بالارتباط مع المركز ومع تحقيق الاهداف المشتركة .

يانكي سيتي

انبثقت أبحاث « يانكي سيتي » من تجارب هاوثورن مباشرة ، التي كان قد اشترك فيها لوقت قصير وارنر . ان باحثي « وسترن الكتريك » كانوا ينوون دراسة علاقة مشاغل « هاوثورن » بالمتحد الاجتماعي المجاور . ولكن دراسة مدينة بأهمية شيكاغو كانت تبرز الكثير من الصعوبات ، فبدأ البحث عن مدينة صناعية أصغر ، حيث بالاستطاعة امتحان مشاكل العمال في اطارها الاجتماعي الشامل . وكان وارنر يتوق الى مجموعة اقل تفككا من ناحية التنظيم من القطاعات الصناعية في شيكاغو ، بحيث تكون نماذجها الاجتماعية ثابتة نسبيا ومقاومة التغيير . هذه الشروط كانت تدفع الاختيار نحو نيو انغلند أو نحو الجنوب الاقصى من الولايات المتحدة . وفي النهاية تم اختيار نيو باريبورت، في ماساشوستس، وهي مدينة صغيرة من الساحل لها ماض طويل . وقد كان تعداد سكانها في مرحلة التحقيق حوالى سبعة عشر الف شخص .

ابتدأ العمل على الحقل عام ١٩٣١ وانتهى في ١٩٣٥ . ونشرت نتائج البحث في خمسة اجزاء(٢٤) ضخمة ظهرت بين ١٩٤١ و ١٩٥٩ متطابقة مع تصميم البحث الاولي . وتتضمن هذه المؤلفات وصفا عاما للحياة الاجتماعية في يانكي سيتي ، وتحليلا اكثر تنبها **للتنضيد**

---

(٢٣) The Human Group, op. cit., chap. 3-6.

(٢٤) W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, the Social Life of a Modern Community, New Haven, Yale University Press, 1941; the Statuts System of a Modern Community, New Haven, Yale University Press, 1942. W.

الاجتماعي ؛ ودراسة لوضع ثماني مجموعات أثنية (الايرلنديين ، الكنديين من أصل فرنسي ، اليهود ، الايطاليين ، الارمن ، اليونانيين ، البولونيين والروس) ودراسة تطور صناعة الاحذية المحلية عبر اضراب هام وتحليل الرموز السياسية ، والتاريخية والدينية الموجودة في « يانكي سيتي » . ولقد استفاد وارنر في تحضير هذه المؤلفات من عون مجموعة ذات كفاءة خاصة من المساعدين والمعاونين ، بينهم العديد من الذين أجروا أبحاثا مهمة لحسابهم .

ان بحث « يانكي سيتي » يشبه في أوجه عدة منه البحث الاول عن « ميدل تاون » . هنا أيضا ، أقامت مجموعة شابة ومتحمسة في المدينة ، وعرضت على السكان أهدافها العامة وباشرت بتجميع معلومات ضخمة ملتجئة الى تقنيات متنوعة : ملاحظة مشاركة ، خرائط ، تعدادات احصائية ، مقابلات ، استمارات ، دراسة حالات ، وثائق عامة ، دوريات ، جرائد خاصة وذكريات . وكما في « ميدل تاون » ، فان الاكتشاف الاول البارز كان يتمثل في أهمية نظام الطبقات الاجتماعية المحدد جيدا والذي كان له تأثيره على أصغر مظاهر حياة السكان . وكما في « ميدل تاون » أيضا ، فان وجود الباحثين كان له صدى واضحا على الوعي الاجتماعي للفئات السكانية المدروسة . وقد ظهر وارنر وتحقيقه في قصة : ج. ب. ماركان(٢٥) المخصصة لمدينة نيوباريبورت .

غير أن الاختلافات هي بأهمية التشابهات . فقد ركزت دراسة « ميدل تاون » اهتمامها على التغييرات الاجتماعية الحاصلة بين ١٨٩٠ و ١٩٢٥ ؛ أما في « يانكي سيتي » فقد دُرست التغييرات في فترة أطول بكثير . واذا لم تكن « ميدل تاون » عينة ممثلة للمجتمع الاميركي فهي كانت ممثلة ، على الاقل ، لأميركا الغرب الاوسط ، ومع ان « يانكي سيتي » لم تكن وحيدة من نوعها ، فانها لم تكن تمثل الا جزءا اقل أهمية بكثير من المجتمع الاميركي . وقد خضع هذا البحث لحب

Lloyd Warner and J. O. Low, the Social System of the Modern Factory. The Strike : A Social Analysis, New Haven, Yale University Press, 1945. W. Lloyd Warner, the Living and the Dead: A Study of the Symbolic Life of Americans, New Haven, Yale University Press, 1959. W. Lloyd Warner and Leo Srole, the Social Systems of Americans Ethnic Groups, New Haven, Yale University, 1945.

(٢٥) John P. Marquand, Point of no Return, Boston, Little Brown and Company, 1949.

الاضطلاع على بعض الاماكن أو الاشخاص المعينين . ولكن الفرق المنهجي الاكثر أهمية يعود الى ان مختلف المجموعات في « ميدل تاون » تم التعامل معها **ككتل** . بينما جمعت المعطيات حول « يانكي سيتي » على أساس **الافراد** . ان الجزء الاكثر اهمية من التحليل كمن في اعادة رسم الروابط والعلاقات بين مختلف الافراد . وقد سمح نظام التصنيف بجمع المعلومات الشخصية حول مختلف السكان الذين هم على قيد الحياة .

وطبقا لوارنر : « فان تراتب الطبقات يتألف ، على الاقل ، من مجموعتين من الاشخاص ، يتبادلون الاعتراف ويعترف بهم باعتبارهم يشغلون ازاء بعضهم البعض أوضاعا عليا أو سفلى . ان أعضاء طبقة ما يتجهون للزواج من داخل طبقتهم ولكن قيم المجتمع تسمح بالزواج من أعلى أو من أدنى بالنسبة للشرط الطبقي . ان نظام الطبقات يعطي الاولاد، لحظة ولادتهم، المراكز نفسها التي تعود لأهلهم . ان المجتمع الطبقي يوزع بطريقة متفاوتة الحقوق والامتيازات ، الواجبات والالتزامات . وعلى خلاف نظام المراتب المغلق يتيح النظام الطبقي لأعضائه امكانية صعود أو هبوط السلم الاجتماعي . والتعبير الدارج « التسلق اجتماعيا » يترجم في اللغة التكنيكية بعبارة «الحركية الاجتماعية» ». ويخلص وارنر : « في رأينا ، ان النظام الاجتماعي في « يانكي سيتي » كان يسوده تراتب طبقي »(٢٦) .

لقد احتوت هذه التراتبية على ست طبقات اجتماعية ، وعلى الارجح ثلاث طبقات رئيسية تنقسم كل واحدة منها الى اثنتين .. ولقد أعطى السكان هذه الطبقات أسماء مأخوذة من أحياء المدينة المختلفة : مثلا هيل ستريترز ، سايد ستريترز ، ريفر بروكرز ، وتلك كانت توريات جغرافية خدمت كعناوين طبقية . وفي مصطلح وارنر ، اكتسبت الطبقات الست اسم : عليا ـ عليا ، عليا ـ سفلى ، وسطى ـ عليا ، وسطى ـ سفلى ، سفلى ـ عليا ، وسفلى ـ سفلى . والطبقة العليا ـ العليا كانت مكونة من العائلات القديمة التي حازت على وضع هام في مدينتها منذ ثلاثة أجيال على الاقل . وتحتها وجدت العائلات الاقل قدما ذات نمط الحياة المماثل لكن وضعها كان حديث الاكتساب . أما الطبقة الوسطى ـ العليا فقد كانت مكونة من رجال الاعمال الذين حصلوا مستوى معينا من الاستقلالية ، ومن أعضاء المهن الحرة ؛ بينما تشكلت الطبقة الوسطى

---

(٢٦) Warner and Lunt, op. cit., p. 82.

ـ السفلى من صغار التجار والمستخدمين . وقد ساد العمال في الطبقة السفلى ـ العليا . وجمعت الطبقة السفلى ـ السفلى ألريفر بروكرز ، باعتبارهم يد عاملة عاطلة عن العمل غالبا ، استمروا بشق النفس بفضل الاعمال الموسمية كجمع ثمار البحر ، وصيد السمك ووسائل أخرى .

لقد شكل « اليانكيون » المجموعة الاثنية الاكثر أهمية بدون جدال . ومن ضمنهم كان اولئك المتحدرون من المنطقة والذين مثلوا نصف السكان تقريبا ؛ وقد كانوا موجودين بأعداد كبيرة في الطبقات الست ، ولكن على الاخص في الطبقة العليا ـ العليا ، والطبقة السفلى ـ السفلى . ان ربع السكان كان ينتمي الى مختلف المجموعات الاثنية التي كانت قد استقرت في « يانكي سيتي » منذ عام ١٨٤٠ . وكانت تمكن مصادفتهم في كل الطبقات ، ما عدا الطبقة العليا ـ العليا . وخلال فترة التحقيق ، كان يبدو أن كل واحدة من هذه المجموعات الاثنية تحسن دورها بانتظام ، وتدريجيا ، بالترافق مع ارتفاع نسبة المولودين من إفرادها في البلاد ومع تخفيف الحواجز الثقافية التي كانت تعزلها عن السكان المهيمنين .

ومع أن وارنر قد استند ، بالمناسبة ، الى « تنظيم » الحياة في « يانكي سيتي » ، فان نظام الطبقات ليس هو بتنظيم بالمعنى السوسيولوجي العادي ، أي أنه ليس بنظام اجتماعي ذو أهداف جماعية بينة . فقبل المحققين ، لم يكن أي شخص في « يانكي سيتي » على معرفة كاملة بنظام الطبقات مع ان كل السكان بالتقريب كانت عندهم فكرة عنه . فقد كان هناك تصور عفوي قد شق طريقه تدريجيا وقد بقي في الحالة نفسها لا سيما وان « نيو باريبورت » ذات سكان ثابتين نسبيا ولم تعب ، خلال تاريخها ، باضطرابات مهمة .

ان حيازة رأسمال وبلوغ المواقع المالية المربحة كانا يشكلان المقياس الاساسي الذي يرتكز عليه نظام الطبقات في « يانكي سيتي » ولكن هذين المقياسين لا يفسران هذا النظام كليا . اذ ان أفراد كل طبقة كانوا في المتوسط أكثر غنى من أفراد الطبقة السفلى ، ومع ذلك فقد وجدت هوة مهمة غالبا بين تطور الوضع المالي لعائلة ما والتطور الملائم لمركزها ؛ بحيث أن بعض أعضاء الطبقة العليا ـ العليا كانوا يعيشون في حالة قريبة من الفقر ، بينما كان يحوز بعض أعضاء الطبقة المتوسطة السفلى على مداخيل عالية . ان واسطة التمييز في النظام الطبقي لم تكن بمستوى

المداخيل ولكنها كانت بالاحرى في مجموع القواعد المعقدة ، النافذة والمتنوعة . التي تحسم اختيار الافراد في مختلف أشكال الجمعيات والنوادي في المدينة . ان ما كان مهماً في « يانكي سيتي » ، اذاً ، هو العائلة التي تم التحدر منها والتجمعات الاقتصادية و « الزمر » والجمعيات التي ينتمي اليها .

ان أعضاء العائلة الواحدة ينتمون عادة الى الطبقة ذاتها ، وأعضاء « الزمرة » الى طبقة أو اثنتين متجاورتين ، واعضاء الجمعية الى مجموعة طبقات ، ويرتبط امتداد هذه الجمعية بطبيعة نشاطها ؛ اما بالنسبة لأعضاء التجمع الاقتصادي فكانت أوضاعهم جد متنوعة في التنضيد الاجتماعي .

هذا النسق كان الاعتراض عليه قليلا بشكل ملحوظ ، وذلك لان غير الراضين كانوا يهاجرون ولم يكن يبقى في « يانكي سيتي » الا اولئك الذين كانوا يقبلون قيم النظام . ان كل ترفيع اجتماعي كان يرتبط بأعضاء الطبقة العليا مباشرة التي كانت تقبل أو ترفض معاشرة المرشح . وبما أن الاهمية العددية لكل طبقة ، بما فيها العليا ـ العليا ، كانت تسمح بتجنب امكانية احتكار الترفيع من قبل شخص واحد أو من قبل جماعة ، فان المرشح المرفوض كان باستطاعته دائما طرق باب آخر . ان العجائز الثريات في « يانكي سيتي » كن يمضين حياتهن في حبك أو في مشاهدة ما يحبك من دسائس الصالونات ، وكل اجتماع لجماعة الصالونات كان يمكن ان يفسر كجزء من لعبة دائمة حيث كانت تربح فيها او تخسر امكانية اكتساب المراكز . ان الجولات الحامية الوطيس كانت تلعب في رأس السلم الاجتماعي حيث التعويضات الاقوى . بينما كان يمارس اللعب بفظاظة وتساهل بين الطبقات المحرومة .

وكما في دراسات « ميدل تاون » ، فان « يانكي سيتي » سمحت للاميركيين بأن يروا أنفسهم بشكل أفضل وكشفت أي تفاوت ضمني كان يخبؤه التشابه الظاهر بين المؤسسات الاميركية . ولكن ثمن هذه النظرة الثاقبة ، كان في استنتاج مقدار ما كان عليه النظام الطبقي ، في « تيو باريبورت » ، في طبيعته ، من خيانة ضمنية ، غير مباحة وغير شرعية للمثل الديمقراطية وللمساواة التي كان يطالب بها الاميركيون . ان الباحثين ، وهم يفسرون النظام ، عدلوا ميزته بمقدار ما أكدوا شرعية أعضاء « الزمرة » في الطبقة نفسها ، وبمقدار ما اثبتوا لطبقة أو لاثنتين

ادعاءات أولئك الذين انتسبوا لمركز أعلى ؛ وجعلوا من الصعوبة بمكان على الطبقات المتوسطة والدنيا أن تتوهم حول مساواتها النظرية . وحوالى العام ١٩٦٠ أصبح وجود الطبقات في الولايات المتحدة معترفا به من الجميع ، كما اعتمد نظام الطبقات الست ؛ الذي اكتشفه وارنر في « نيو باريبورت » ؛ دون البحث أبعد من ذلك ؛ واعتبر موجودا في كل مكان تقريبا ؛ الامر الذي يصعب تأكيده .

مجتمع في الشارع

انه لبلد غريب هذا الذي اكتشفه وليم فوت وايت بالقرب من منزله عندما درس ، بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ، حيا بائسا ؛ يقيم فيه ايطاليون (كورنفيل) في بوسطن(٢٧) . لم تكن دراسة وايت غريبة عن ابحاث « يانكي سيتي » . فلقد تعلم تقنيات التحقيق على الحقل بواسطة كونريد آرنسبرغ واليوت شابل اللذين تكونا في « يانكي سيتي » ؛ واستفاد من ارشادات وارنر في تحضير تصميمه للبحث .

ان الاختلاف الاساسي بين البحثين يأتي من واقع أن وايت قد عمل لوحده ، باستثناء مساعدة ضئيلة مقدمة من امرأته وزميل دراسة . واستخدم بشكل حصري تقريبا الملاحظة المشاركة . وفي زمن التحقيق كان سكان كورنفيل أكثر بقليل من سكان « يانكي سيتي » ؛ اذ كانوا حوالي العشرين الفا . ولم يكن لوايت ان يدعي دراسة مؤسسات كورنفيل بشكل شامل . فهو لم يتلمس سوى العائلة ، الكنيسة ، المدارس والمظهر الشرعي للنشاطات الاقتصادية المحلية . وقد كان هدف تحقيقه تحديد الروابط الموجودة بين جمعيات الاحداث في كورنفيل وابتزاز المال بالطرق الممنوعة ، والنظام السياسي المحلي . وقد وصف في الجزء الاول من مؤلفه « تطور الجمعيتين » اللتين ساهم فيهما : عصابة من الاحداث كانوا يسمونهم النورتون وجمعية صغيرة مسماة نادي الجماعة الايطالية . ان اعضاء عصابة النورتون كانوا من احداث الشارع الذين تنحصر طموحاتهم وآمال نجاحهم داخل الحي . بينما كان اعضاء نادي الجماعة الايطالية طلابا متلهفين لايجاد موقع لهم في المجتمع الكلي .

(٢٧) William Foate Whyte, Street Corner Society: the Social Structure of an Italian Sium, Chicago, University of Chicago Press, 1943.

ان « مجتمع في الشارع » يملك صفات أدبية مميزة ؛ فمن بين جميع المؤلفات السوسيولوجية ، لم تقدم دراسة أخرى أوصافا بهذه المهارة ، ولا معنى كهذا للمأساة الاجتماعية ، وقليلة هي الدراسات التي ذكرت بهذا المقدار . وترجع هذه الصفات الى الالتزام العاطفي للمؤلف : فهو يلاحظ في مكان ما من بحثه بأنه كاد يتحول من ملاحظ غير مشارك الى مشارك غير ملاحظ . وكان يشعر بأنه أكثر قربا من عصابة النورتون . فقد كان دوك ، مخبره الاول ، صديقه الحميم ومعاونه تقريبا . ان تاريخ عصابة النورتون يختلط بجزئه الاكبر بتاريخ دوك الذي نراه أولا في أيام مجده ، وبعد ذلك في أفوله كقائد . وبما انه كان في حالة مستمرة من البطالة ، فانه لم يستطع ان يواجه الالتزامات التي كان يفرضها عليه موقعه فاضطر في النهاية الى حل العصابة التي اسسها . ومع ان تاريخ نادي الجماعة الايطالية مختلف فهو يتقاطع مع تاريخ شيك موريللي ، وهو انتهازي بدون مبادىء ، كان يحبه وايت اقل بكثير ، رغما عنه ، أو بسبب معرفته الكاملة بالبنية الاجتماعية لكورنفيل . ان ما كان يجري هنا هو ، وان بدرجة أدنى ، صراع بين أسود وثعالب باربتو ، وعواطف وايت كانت منحازة كلها الى الاسود البائسين .

يتشكل الجزء الثاني من التقرير من دراسة البنية الاجتماعية لعملية ابتزاز المال في كورنفيل . ان العصابات التي كانت تراقب الالعاب الممنوعة(*) كانت تحترس بواسطة تسويات دقيقة مع الشرطة ، وتغذي علاقات حميمة مع هذا الجزء من المحيط السياسي الذي ينعش الاخلاص الاثني ويوفر الحاجات المحلية . ان الفضل الخاص لوايت كان في تبيان سير عمل هذا النظام مبتدئا بالقاعدة . فهناك فصل مهم يبين كيف ان ناديا صغيرا للرياضة وللاعمال الاجتماعية قد وقع بين أيدي العصابات ولعب دورا مميزا في أحد الانتخابات البلدية . ان وضوح أسلوب وايت ووصفه الدقيق للاحداث وطريقته في نقل الاحاديث بالاسلوب المباشر تقدم للقارىء الانطباع بالمشاركة في التحقيق .

ومع ان دراسة وايت هي دراسة منطقة محرومة في نهاية الانهيار الكبير ، ومع انه اهتم بالجانب السيء للاشياء (البطالة ، الشروط السيئة

---

* المقصود ، اساسا ، هو لعبة الارقام ، وهي نوع من اليانصيب السري الممنوع في الولايات المتحدة .

فان حماسه لم ينجح في تحويل كورنفيل الى جزيرة سعيدة لا تعرف العنف ، والخبث والعذاب الحقيقي . لقد كان يريد الدخول في هذا المحيط ونجح بحيث انه أحب اشخاصه ودفع ثمن ذلك فيما بعد . لقد أصبحت عائلة صاحب مطعم من الحي أسرة ثانية بالنسبة له . وتعلم الايطالية ، وتوصل الى اكتساب موقع هام في عصابة النورتون ، واتخذ له أصدقاء من بين أعضاء عصابة ابتزاز المال . وشارك في الحملات الانتخابية ونجح حتى في اقناع المرأة التي أتى على الزواج منها بالمجيء للعيش في كورنفيل . ونسي أحيانا ان يبقى حياديا واتخذ مُوقفا في الخصومات(٢٨) . ولكي يمتثل لمعايير أصحابه ، بالغ أحيانا أكثر مما كان ينتظر منه ، الى حد انه كان يقترع ، عدة مرات ، مثلا ، في يوم الانتخاب . ويحتمل ان تفضيله للمعلومات المباشرة ، التي لا تتأتى من الوثائق ولا من الاحصائيات ، هو نتيجة الاهمية التي يعلقها على الاتصالات المباشرة والشخصية .

لقد اكتشف وايت في كورنفيل بعض الانتظام في السلوك ، وبالاخص لان أحداث الشارع كانوا مشدودين لقيم محلية بينما الذين كانوا يدرسون التجأوا الى قيم كوسموبولوتية . بمعنى آخر ، فان أحداث الشارع كانوا يحتفظون بالفضائل الاصلية لعالمهم المحدود جدا ، بينما كان الطلاب ، المشجعون من قبل تنظيمات العون الاجتماعي ومن قبل الممثلين الاخرين للمجتمع ككل ، يهملون التزاماتهم تجاه الاخرين في سعيهم للنجاح الاجتماعي .

ميز وايت ثلاثة مستويات ، في كل تراتبية داخل كورنفيل ، مستوى سواد الشعب ، مستوى الاشخاص المهمين ، ومستوى المتوسطين منهم . لقد الف أحداث الشارع جزءا من سواد الشعب ، بينما كان قادة ابتزاز المال والسياسيون ينتمون الى الاشخاص المهمين . وشكل قادة العصابات ما سمي بالمتوسطين الذين كانوا يؤمنون الصلة . وقد وجد هذا النموذج حتى في العالم « الآخر » أو « فوق الطبيعي » حيث كان المخلصون (سواد الشعب) يطلبون من القديسين (المتوسطين) التدخل لصالحهم لدى الاشخاص المهمين في السماء . لكن

---

(٢٨) أنظر الوصف الذي كتبه وايت عن تجاربه الشخصية في طبعة :
Street Corner Society, University of Chicago Press, 1955, et dans Vidich, Bensman and Stein, eds., Reflections on Community Studies, New York, London, Sydney, John Wiley and Sons, Inc., 1964.

التنضيد الاجتماعي في كورنفيل كان أعقد من هذه التدرجات البسيطة . فكل الجمعيات التي صادفها وايت ، مع أنها كانت تبدو بسيطة وغير منظمة ، للوهلة الاولى ، فقد كانت تملك تنظيما تراتبيا خاصا بها . ومن جهة أخرى كان يجب البرهنة على كيف أن المركز كان يرتبط بانجاز شبكة من الالتزامات داخل الجماعة ، بحيث ان مركز الفرد كان يقدم قياسا لاستعداده النسبي للامتثال لقيم الجماعة .

ان مفتاح بنية المجموعة ، كان ، في كل الحالات ، القائد : فهو الذي كان يمثل الجماعة أمام العالم الخارجي ، وهو الذي كان يحكم الصراعات الداخلية ، وهو الذي كان يبادر في النشاطات الجماعية . ان العلاقات الاستراتيجية ، بالنسبة للقائد ، هي التي كان يقيمها مع مساعديه الاوائل وليس مع راس القطيع . وعندما كانت تحصل تغييرات في القيادة ، فانها كانت تتم اثر تغييرات في علاقات القوى في قمة البنية التراتبية ، وليس ابدا بسبب ثورة القاعدة . وقد تبين لوايت ان مثل هذه الاضطرابات تستطيع ان تصيب في العمق اولئك الذين كانوا من ضحاياها. والذي كان يحصل هو ان القائد المخلوع او احد معاونيه الاوائل الذين كانوا يتبعونه في خطاه ، كانوا يلتقطون أمراضا اجتماعية جسدية .

لكن اكتشاف وايت ، الذي ربما صفع اكثر ، هو ما يسمى تأثير نتيجة البولينغ .

فلعبة البولينغ كانت تشكل احدى النشاطات الرئيسية لعصابة دوك وكانت تعلق اهمية قصوى على الانتصارات المحققة فيها. وكان وايت يفترض بأن درجة مهارة الفرد في البولينغ تساهم في تحديد مركزه في الجماعة ، ولكنه توصل ، بعد ملاحظة طويلة ، الى خلاصة تقول ان العكس هو الصحيح . فقد كان مركز العضو في الجماعة هو الذي يحدد مهارته في البولينغ ، على الاقل عندما كانت تجتمع الجماعة كاملة لمباراة مهمة . فبواسطة ضغوطات هي، في الوقت نفسه، حاذقة وقاسية ، كان يتم التقليل من انتصارات الاعضاء الذين يحتلون مرتبة متدنية في تراتبية الجماعة بينما كان يتم دعم انتصارات القادة .

وقد روى لنا وايت هذه الظاهرة كما عايشها ذاتيا :

هنا ، حتى على حلبات البولينغ ، كنت استطيع رؤية كيف تعمل البنية الاجتماعية . فكل واحد من الاعضاء كان يلتزم بمكانة ، وانا

مثل الاخرين ، لم أكن أستغرق في التفكير الا باعتباري الصديق الحميم لدوك وداني ومايك . اذ انني كنت احتل الموقع القريب من القمة في الجماعة وبالتالي فانه كان ينتظر مني أن أتميز في هذه المناسبة المهمة . كنت أشعر ببساطة انني مشجع بهذا الوضع وبأن أصدقائي كانوا يثقون بي ويرغبون بأن ألعب جيدا . وعندما أتى دوري وتقدمت لرمي الطابة ، شعرت انني واثق حتما من بلوغ الاوتاد التي كنت اصوب اليها . ولم ينتابني أبدا هذا الشعور في السابق ، ولم يعد الي هذا الشعور ، تماما ، منذ ذلك الوقت . هنا ، على حلبة البولينغ ، كنت أختبر ذاتيا تأثير بنية الجماعة على الفرد . لقد كان ثمة شعور غريب وكأن شيئا أقوى مني هو الذي يسيطر على الطابة . فبعدما كنت أوازنها كنت أقذفها باتجاه الاوتاد(٢٩) .

يمكننا التساؤل ، نظرا للمزيج من العناصر الموضوعية والذاتية المصنوع منها « مجتمع في الشارع » ، عما اذا كان ممكنا لباحث آخر ، من طبع مختلف ، أن يجد الاشياء نفسها ، اذ تستحق هذه الدراسة ، وأكثر من أي نتاج سوسيولوجي آخر ، أن يجري تحقيق مضاد لها . وانه لعديم التفسير تقريبا ان لا يجري تدقيق كهذا . اذ أن تحقيق ليبو(٣٠) حول عصابة من الاحداث السود لا تتشابه الا سطحيا مع « مجتمع في الشارع » وهو يهتم بالقضايا المهنية والعائلية ويغطي ميادين مختلفة .

التناقض الاميركي

ان المبادرة في تحقيق ميردال حول وضع الزنجي الاميركي ، ترجع الى مؤسسة كارنيجي ، عام ١٩٣٧ . وقد انجز العمل بسرعة ملحوظة على الحقل بين ١٩٣٨ و ١٩٤٠ .

لقد أريد صنع دراسة متفهمة عن الإسود في الولايات المتحدة ، وكانت هذه الدراسة هي كذلك فعليا . وتم اختيار ميردال ، وهو اقتصادي وعالم اجتماع سويدي ذو شهرة عالمية ، لادارة هذا التحقيق

---

(٢٩) Street Corner Society, édition augmentée, p. 319.

(٣٠) Eliot Liebow, Tolly's Corner: a Study of Negro Street-Corner Men, Boston and Torento, Little Brown and Company, 1967.

لان البلد الذي أتى منه ليس فيه عمليا الا بيض ولم ينخرط في أية عملية استعمارية خلال تاريخه . ومن السويد ، اصطحب معه مساعدا ، هو ريتشارد سترنر ، وبدأا بالتنقل عبر كل الجنوب من أجل حاجات بحثهما . وقد عاد ميردال الى السويد في بداية ١٩٤٠ ، ولكنه رجع الى الولايات المتحدة في ١٩٤١ ليحضر التقرير النهائي ، واليه تعود ، بالاساس ، مسؤولية الافكار الرئيسية الموجهة .

يشكل هذا البحث الجهد الجماعي الاكبر المنجز حتى يومنا هذا من قبل علماء اجتماع أميركيين . فلقد كانوا مائة وخمسون ، وساهموا فيه كمستشارين ، ومحققين ومحررين . وقد تضمن هذا العدد قسما كبيرا من علماء الاجتماع البارزين في ذلك العهد . وقد ظهرت ثلاثة مؤلفات عن الاوجه الاجتماعية لوضع الزنوج(٣١) قبل أن ينتهي تقرير البحث(٣٢) . وقد استعملت معطيات هذا البحث في العديد من المنشورات(٣٣) بينما بقيت دزينات عدة من المخطوطات المحضرة لحاجات هذا البحث في الادراج . ان حقل هذا التحقيق كان فسيحا ، فهو يضم تاريخ السكان السود ، أصلهم ، تركيبهم ومميزاتهم الجسدية . ويتضمن التحقيق ايضا روائز الذكاء والشخصية ، عرض نقدي للمعطيات الاحصائية المختلفة ، تحقيقات بواسطة الاستمارات ، دراسات عن حالات الامراض العقلية ، تحليل للسلوك النمطي (المكرر) للايديولوجيات ، للاحكام المسبقة ولاشكال الجريمة ، دراسة دور الزنوج في الصناعة ، الزراعة ، المنشآت الخاصة ، التربية والحكومة ، دراسة حول التباينات في الاجور ، وحول التشريع العنصري وغيرها من المواضيع . وبغض النظر عن تعقيده وامتداده ، فان المسألة المركزية في « المازق الاميركي » كانت جد بسيطة : انها معروضة في حرف طباعي مائل ، في مقدمة ميردال :

ان القضية الزنجية هي قضية موجودة في قلب كل أميركي . هنا

---

(٣١) Melville J. Herskovits, the Myth of the Negro past, New York, Harper and Bros., 1941; Charles S. Johnson, Patterns of Negro Segregation, New York, Harper and Bros., 1943; Richard Sterner, the Negro's Share, New York, Harper and Bros., 1943.

(٣٢) Gunnar Myrdal, en collaboration avec Richard Sterner et Arnold Rose, An American Dilemma: the Negro Problem and Modern Democracy, New York, Harper and Bros., 1944.

(٣٣) Otto Klineberg, ed., Characteristics of the American Negro, New York, and London, Harper and Bros., 1944 et Arnold Rose, the Negro in America, New York, Harper and Row, 1964.

سوف توجد بؤرة الضغط بين الاعراق . وهنا يتتابع الصراع الحاسم . هذه هي الفكرة المركزية لهذا المؤلف . وبالرغم من أن دراستنا تتناول علاقات اقتصادية ، اجتماعية وسياسية بين الاعراق ، فان قضيتنا هي ، بالاساس ، التناقض المعنوي الذي ينزوي بداخله الاميركيون ، والذين تتنازعهم قيم تتناقض في مستويات مختلفة من الوعي والواقع . ان المأزق الاميركي الذي يرجع اليه عنوان هذا المؤلف ، هو الصراع المستمر من جهة بين القيم التي نسميها « العقيدة الاميركية » والتي تقود الاميركي في التفكير ، والتكلم والتصرف على شاكلة المبادىء النبيلة القومية والمسيحية ، ومن جهة أخرى ، بين القيم الخاصة بحياته الشخصية أو حياة جماعته ، حيث تسيطر المصالح ، سواء كانت شخصية أو جماعية ، والغيرة ، سواء كانت اقتصادية ، اجتماعية أو جنسية ، واعتبارات المكانة والامتثال ، وكل أشكال الاحكام المسبقة ضد أشخاص مستقلين أو جماعات ، وأخيرا مجموعة بكاملها من الحاجات ، والدوافع والعادات(٣٤) .

ان ذلك يقود الى البحث عن أسباب القضية الزنجية في الولايات المتحدة في معتقدات ونشاطات الاكثرية البيضاء ، وليس في معتقدات وافعال الأقلية السوداء ، وهذه خلاصة توصلت اليها أيضا لجنة حكومية مكلفة بالتحقيق حول الاضطرابات المدنية وذلك بعد جيل تقريبا ، وبعد تحقيق حول الاضطرابات السوداء خلال صيفي ١٩٦٥ — ١٩٦٧(٣٥) .

وبالفعل ، فان تحقيق ميردال أنذر بأحداث عديدة . فقد سمح ، مثلا ، بتوقع الهجرة المستمرة للزنوج من الجنوب نحو مدن الشمال ، وشدد على الدور الخطر للشرطة البيضاء في الاحياء الزنجية . وكشف كل العدوانية الكامنة التي ستظهر فيما بعد من خلال القومية الزنجية . ولقد توقع التحقيق ان تحسين فرص النجاح يمكن حتى ان يقود بعض السود لاطراء العزل الذاتي أكثر من اطرائهم للاندماج .

بالنسبة لميردال ، ان العقدة المركزية للقضية العنصرية الاميركية كانت رفض البيض الاجماعي تقريبا في قبول الاندماج مع السكان السود

---

(٣٤) An American Dilemma, p. 75.

(٣٥) Report of the National Advisory Commission on Civil Disorders, New York, Bantam Books, 1968.

وثقتهم بالعزل لمنع الاتصالات التي تسمح باقامة الزيجات بين الاعراق . كما لاحظ ظاهرة سماها التراتبية في التمييز العنصري عند الانسان الابيض (اي الاهمية الاكثر أو الاقل كبرا والتي يعلقها البيض على كل نمط من التمييز) ، وشدد على أن تراتبية الزنوج (الاهمية الاكثر أو الاقل كبرا المتعلقة بازالة كل شكل من التمييز) كانت عمليا العكس . ففي الدرجة الاولى كانت التراتبية الخاصة بالانسان الابيض تحرم الزواج بين الاعراق والعلاقات الجنسية للرجال السود مع النساء البيض ، وبعد ذلك يأتي في الترتيب منع الاتصالات الاجتماعية ، العزل في الخدمات العامة ، الانعتاق السياسي، المعاملة التمييزية من قبل السلطات العامة ، وأخيرا التمييز الاقتصادي . أما بالنسبة للزنوج ، فانهم كانوا يعطون للتمييز الاقتصادي المكانة الاولى في تراتبيتهم . .

وقد صنفع ميردال بقوة نظرا للتشابه بين وضع الزنوج ووضع غيرهم من الجماعات المبعدة عن المساهمة الاقتصادية الكلية ، كالنساء والبيض الفقراء . واشار الى ان المراتب المحرومة من اليد العاملة الاميركية لم تتحد أبدا ، كما في النمط الماركسي ، لمواجهة الطبقة القائدة ، ولكنها كانت تظهر على العكس عداوة متبادلة ، وكل واحدة منها كانت تحاول ابقاء الاخرين في حالة من الخضوع .

حدد ميردال الالية التي ابقي الزنوج من خلالها في وضعيتهم كمحرومين باعتبارها تقدم في مبدأ التراكم .

« ان الاحكام المسبقة والتمييز من قبل البيض يبقيان الزنوج في مستوى متدن ، سواء في شروط معيشتهم ، في ميدان الصحة ، التربية ، العادات والمعنويات . وهذا ما سمح للبيض في المقابل بتبرير أحكامهم المسبقة . وهكذا فان الاحكام المسبقة للبيض وكذلك شروط حياة السود تفرز نفسها بصورة متبادلة »(٣٦) .

وبالنسبة لميردال ، فان الترابط بين جميع عوامل الفقر لم يكن فيه مجال للشك ولكن اهتمامه بالاقتصاد دفعه الى التشديد على أشكال الاملاق الاقتصادية التي خضع لها الزنوج وما زالوا يخضعون. ويعتبر ميردال ان الوضع الاقتصادي للزنوج الاميركيين كان مَرَضيا : لقد كان توجههم نحو الملكية قليلا ، وتجهيزهم المنزلي غير كاف

---

(٣٦) An American Dilemma, p. 75.

ومداخيلهم ضئيفة وغير منتظمة .

ولقد تمركز المزارعون السود في المقاطعات الاقل انتاجية في الزراعة ، والذين منهم لم يكونوا يزرعون الارض كانوا يوجدون بين الخدم ذوي الاجور الاكثر تدنيا أو منهمكين في الاعمال الاكثر حرمانا في الصناعة . وكانت البطالة متفاوتة الارتفاع بين الزنوج . وقد فاقم صعود التنظيم النقابي في السنوات الثلاثين وضعهم النسبي بدلا من ان يحسنه .

لم يكن ميردال ، العالم الاجتماعي الاول الذي اهتم بالروابط بين الطبقات والمراتب في الولايات المتحدة والذي انتبه الى أن البنية الطبقية للسكان السود في الولايات المتحدة كانت نتيجة مباشرة لتبعيتها في البنية التراتبية .

فلقد كان روبرت أ. بارك الاول الذي أعطى نظرة عن هذه العلاقة وأعيد أخذ الفكرة ودفعها ابعد من قبل وارنر ، ولكن ميردال حسّن تكوينها وبيّن كيف أن نظام التراتب المغلق كان يخلق صراعا بين الطبقات داخل السود .

كان ميردال يعتقد بحزم (وما زال يعتقد) ان علم اجتماع متحرر من الاحكام القيمية لا يمثل اية أهمية ، وان واجب عالم الاجتماع تجاه قراءه لا يتمثل في موضوعية باردة ولكن في عرض واضح للفرضيات المعيارية الخاصة بعمله . ان الفرضية المعيارية الاساسية في « المأزق الاميركي » معروضة بأكبر وضوح ممكن :

« اننا نعتقد بحقيقة ان الاميركيين الزنوج لهم كل المصلحة ، سواء باعتبارهم افرادا او جماعة ، في الاندماج بالحضارة الاميركية ، واكتساب كل المظاهر المقيمة من قبل السكان البيض المسيطرين في الولايات المتحدة »(٣٧) .

ومع أن هذه الفرضية المعيارية قد تم الاعتراض عليها فيما بعد من قبل العديد من الزعماء السود ، فانها تبقى مقبولة بشكل واسع من البيض والسود . وكذلك فان تعليمات ميردال قد قبلت من أجل تقويض مبدأ التراكم : تحسين شروط عيش السكان السود خطوة خطوة، مؤسسة

---

(٣٧) Ibid., p. 929.

بمؤسسة . واستعمال الوسائل المتاحة لهذا الغرض سواء من قبل الحكومة . أو ايضا مبادرات المنظمات الخاصة والوعي الفردي .

لقد اكد ميردال ان المسألة العنصرية في الولايات المتحدة كانت مرتبطة بشكل معقد بالعلاقات بين سكان العالم البيض وغير البيض ، وانه بمواجهة اكثرية ملونة فان السكان البيض « يتوجب عليهم اما أن يقضوا نحبهم واما ان يجدوا وسائل العيش بسبل سلمية مع الناس الملونين »(٣٨) .

اختيار الشعب

خلال الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٤٠ . كان على منتخبي كونتية اري . في اوهايو ، اتخاذ قرار بالتصويت اما للرئيس المرشح فرنكلين د. روزفلت الذي كان يلتمس ولايته الثالثة ، واما للمرشح الجمهوري وندل ويلكي ، واما الامتناع أخيرا . ان البروفسور ، بول لازرسفيلد . من جامعة كولومبيا التزم بتوضيح عناصر قرار هؤلاء الناخبين . وقد كانت النتيجة تقرير بحث(٣٩) في أقل من مئتي صفحة . لكن تأثيره كان واسعا على نظرية وممارسة السياسة في الولايات المتحدة . ان موجة أبحاث علم الاجتماع السياسي كانت قد انطلقت . فدفعت الى كمية هائلة من المؤلفات التي تحلل العوامل التي تحدد نتيجة الانتخابات في البلدان الديمقراطية(٤٠) .

---

(٣٨) Ibid., p. 1018.

(٣٩) Paul E. Lazarsfeld, Bernard Berelson, Hazel Gaudet, «The People's Choice: how the Voter Makes up his Mind in a Presidential Campaign». New York, Duel, Sloan and Pearce, 1944.

(٤٠) من بين الابحاث اللاحقة عن الانتخابات الاميركية ، نشير الى :
Bernard Berelson, Paul F. Lazarsfeld and William N. McPhee, «Voting: A Study of Opinion Formation in a Presidential Campaign», Chicago, University of Chicago Press, 1954. Angus Campbell, Gerald Gunn, Warren E. Miller, «The Voter Decides», Evanston, Illinois and White Plains, N. Y., Row Peterson and Company, 1954. Heinz Eulau, «Class and Party in the Eisenhower Years: Class Role and Perspectives in the 1952 and 1956 Elections», N. Y., the Free Press, 1962, Ithiel de Sola Pool, Robert P. Abelson and Sammuel L. Popkin, «Candidates, Issues and Strategies: a Computer Simulation of the 1960 and 1964 Presidental Elections», Cambridge, Mass., M. I. T. Press, 1965.

ان فكرة بحث كونتية اري نشأت عن استفتاءات الرأي . حيث تعمم استعمالها في الثلاثينات ، من أجل تحديد اتجاهات الناخب . خلال الحملات الانتخابية ، كما نشأت عن أبحاث بوشر بها في الوقت نفسه من قبل مجموعة محطات الراديو والمجلات ذات الانتشار الواسع بهدف معرفة امتداد وتركيب جمهورها ورفع تأثير دعايتها . ان الجزء الاكبر من التحقيق قد تحقق بواسطة مجلة واسعة الانتشار ومؤسسة استفتاءات .

وقد جمعت المعطيات من عينة مسحوبة بالصدفة . بواسطة استمارة مرمزة مسبقا . كان هذا البحث مع ذلك أكثر تبلورا من تحقيقات الرأي العادية . فقد زار المحققون بيتا من كل أربعة بيوت في كونتية اري من أجل سحب عينة من حوالى ثلاثة آلاف ناخب من مجموع سكان الكونتية الراشدين بالارتباط مع العمر ، الجنس . الاقامة ، التربية ، امتلاك أو عدم امتلاك تلفون وسيارة ، الاصل الاثني . ومن هذه العينة تم اختيار أربع مجموعات تتالف من ستمائة شخص كل منها . وقد تم اختيارها طبقا للمقاييس ذاتها . وقد شكلت احدى هذه المجموعات العينة الرئيسية وتم استجواب الاشخاص الذين يؤلفونها شهريا ، من أيار الى تشرين الثاني ، وجرت المقابلة الاولى قبل تسمية المرشحين والاخيرة بعد الانتخاب . وقد استخدمت العينات الثلاث الاخرى كمجموعات مراقبة لاختبار تأثيرات المقابلات المكررة على العينة الرئيسية .

وقد تناولت الدراسة قبل كل شيء اتجاهات التصويت في انتخاب تشرين الثاني والتغييرات المتوقعة بين مقابلة واخرى . وفي كل مرة كان الشخص يغير فيها رغبته في التصويت ، كان يتم استجوابه حول اسباب وظروف هذا التغيير .

ان تأثير الحملة الانتخابية على قرار كل ناخب كانت أيضا موضوع دراسة معمقة : لم يتضمن التقرير المنشور نص الاستمارة ولكن قيل لنا بأن « كمية من المعلومات حول المميزات الشخصية لكل ناخب : فلسفته الاجتماعية ، ماضيه السياسي ، مظاهر شخصيته . علاقاته بأهله واصدقائه، انتسابه لجمعيات، انتماؤه الديني وآراؤه حول المسائل الشائعة » قد جمعت .

ان امكانية توقع اقتراع أكثرية الناخبين اعتبارا من ثلاث مميزات

بمؤسسة . واستعمال الوسائل المتاحة لهذا الغرض سواء من قبل الحكومة . أو أيضا مبادرات المنظمات الخاصة والوعي الفردي .

لقد اكد ميردال ان المسألة العنصرية في الولايات المتحدة كانت مرتبطة بشكل معقد بالعلاقات بين سكان العالم البيض وغير البيض ، وانه بمواجهة اكثرية ملونة فان السكان البيض « يتوجب عليهم اما أن يقضوا نحبهم واما ان يجدوا وسائل العيش بسبل سلمية مع الناس الملونين »(٣٨) .

اختيار الشعب

خلال الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٤٠ . كان على منتخبي كونتية اري . في اوهايو . اتخاذ قرار بالتصويت اما للرئيس المرشح فرنكلين د. روزفلت الذي كان يلتمس ولايته الثالثة ، واما للمرشح الجمهوري وندل ويلكي . واما الامتناع أخيرا . ان البروفسور ، بول لازرسفيلد . من جامعة كولومبيا التزم بتوضيح عناصر قرار هؤلاء الناخبين . وقد كانت النتيجة تقرير بحث(٣٩) في أقل من مئتي صفحة . لكن تأثيره كان واسعا على نظرية وممارسة السياسة في الولايات المتحدة . ان موجة أبحاث علم الاجتماع السياسي كانت قد انطلقت . فدفعت الى كمية هائلة من المؤلفات التي تحلل العوامل التي تحدد نتيجة الانتخابات في البلدان الديمقراطية(٤٠) .

---

(٣٨) Ibid., p. 1018.

(٣٩) Paul E. Lazarsfeld, Bernard Berelson, Hazel Gaudet, «The People's Choice: how the Voter Makes up his Mind in a Presidential Campaign», New York, Duel, Sloan and Pearce, 1944.

(٤٠) من بين الابحاث اللاحقة عن الانتخابات الاميركية ، نشير الى :
Bernard Berelson, Paul F. Lazarsfeld and William N. McPhee, «Voting: A Study of Opinion Formation in a Presidential Campaign», Chicago, University of Chicago Press, 1954. Angus Campbell, Gerald Gunn, Warren E. Miller, «The Voter Decides», Evanston, Illinois and White Plains, N. Y., Row Peterson and Company, 1954. Heinz Eulau, «Class and Party in the Eisenhower Years: Class Role and Perspectives in the 1952 and 1956 Elections», N. Y., the Free Press, 1962, Ithiel de Sola Pool, Robert P. Abelson and Sammuel L. Popkin, «Candidates, Issues and Strategies: a Computer Simulation of the 1960 and 1964 Presidental Elections», Cambridge, Mass., M. I. T. Press, 1965.

ان فكرة بحث كونتية اري نشأت عن استفتاءات الرأي . حيث تعمم استعمالها في الثلاثينات ، من أجل تحديد اتجاهات الناخب . خلال الحملات الانتخابية ، كما نشأت عن أبحاث بوشر بها في الوقت نفسه من قبل مجموعة محطات الراديو والمجلات ذات الانتشار الواسع بهدف معرفة امتداد وتركيب جمهورها ورفع تأثير دعايتها . ان الجزء الاكبر من التحقيق قد تحقق بواسطة مجلة واسعة الانتشار ومؤسسة استفتاءات .

وقد جمعت المعطيات من عينة مسحوبة بالصدفة . بواسطة استمارة مرمزة مسبقا . كان هذا البحث مع ذلك أكثر تبلورا من تحقيقات الرأي العادية . فقد زار المحققون بيتا من كل أربعة بيوت في كونتية اري من أجل سحب عينة من حوالى ثلاثة آلاف ناخب من مجموع سكان الكونتية الراشدين بالارتباط مع العمر ، الجنس . الاقامة ، التربية ، امتلاك أو عدم امتلاك تلفون وسيارة ، الاصل الاثني . ومن هذه العينة تم اختيار أربع مجموعات تتالف من ستمائة شخص كل منها . وقد تم اختيارها طبقا للمقاييس ذاتها . وقد شكلت احدى هذه المجموعات العينة الرئيسية وتم استجواب الاشخاص الذين يؤلفونها شهريا ، من أيار الى تشرين الثاني ، وجرت المقابلة الاولى قبل تسمية المرشحين والاخيرة بعد الانتخاب . وقد استخدمت العينات الثلاث الاخرى كمجموعات مراقبة لاختبار تأثيرات المقابلات المكررة على العينة الرئيسية .

وقد تناولت الدراسة قبل كل شيء اتجاهات التصويت في انتخاب تشرين الثاني والتغييرات المتوقعة بين مقابلة واخرى . وفي كل مرة كان الشخص يغير فيها رغبته في التصويت ، كان يتم استجوابه حول أسباب وظروف هذا التغيير .

ان تأثير الحملة الانتخابية على قرار كل ناخب كانت أيضا موضوع دراسة معمقة : لم يتضمن التقرير المنشور نص الاستمارة ولكن قيل لنا بأن « كمية من المعلومات حول المميزات الشخصية لكل ناخب . فلسفته الاجتماعية ، ماضيه السياسي ، مظاهر شخصيته . علاقاته بأهله واصدقائه، انتسابه لجمعيات، انتماؤه الديني وآراؤه حول المسائل الشائعة » قد جمعت .

ان امكانية توقع اقتراع أكثرية الناخبين اعتبارا من ثلاث مميزات

اجتماعية فقط : المركز الاجتماعي ـ الاقتصادي ، الانتماء الديني ومكان السكن (المدينة أو القرية) كان الاكتشاف الرئيسي لهذا التحقيق . ويخدم المركز المرتفع والبروتستانتية والسكن في الريف سلفا المرشح الجمهوري . وبمساعدة هذه العوامل لوحدها استطاع المحققون ان يبنوا مؤشرا كانت قدرات توقعه قوية جدا . وهذه النتيجة تم التوصل اليها رغم الصفة العامة نسبيا لقياس المميزات الثلاث . ان تثمين المركز الاجتماعي ـ الاقتصادي ، مثلا ، ارتكز فقط على تقدير المحقق للمساكن ، للممتلكات ، لشكل ولأسلوب تكلم الاشخاص الذين يستجوبهم . وعندما كان المحقق ذاته يقوّم نفس الاشخاص مرات عدة فان معامل الدقة كان يرتفع بصعوبة الى ٨ر٠ (هذا يعني انه كان يغير تقديره مرة على ثلاث) وكانت الدقة أكثر ضعفا عندما كان عدة محققين يقوّمون نفس الاشخاص . والاسئلة الخاصة المتعلقة بالدين لم تدخل في الحساب الانضباط المفروض .

ان الماضي السياسي الخاص بالمنتخب ، بالاضافة الى مميزاته الاجتماعية ، كان يحد ايضا ، بمعنى من المعاني ، من امكانية اختياره . وعمليا فان جميع الجمهوريين ، الذين كانوا قد اقترعوا للاندن ضد روزفلت في ١٩٣٦ ، عام القحط بالنسبة للجمهوريين ، اقترعوا لويلكي في ١٩٤٠ ومعظم الناخبين الشباب اتبعوا الاختيارات السياسية لأهلهم عند اقتراعهم للمرة الاولى .

كانت نتيجة هذه الثوابت المختلفة الحد نهائيا من عدد المقترعين القابلين للتأثر بالحملة الرئاسية وجعلهم أقلية ضعيفة نسبيا . هؤلاء الناخبون غير الملتزمين أصبحوا فيما بعد الهدف الرئيسي لكل حملة سياسية معدة جيدا . ولكن ، كما بيّن تحقيق كونتية اري ، لا يمكن الوصول اليهم بسهولة ، لان الناخبين الاكثر اهتماما بانتخاب ما ، والذين يتابعون مفاجآت الحملة ويشاركون بأنفسهم بالاحتفالات السياسية ، يقررون اقتراعهم قبل الانتخاب وحتى قبل تسمية المرشحين . وبين الناخبين المترددين نجد عددا مرتفعا من النساء ، الشباب ، الفقراء واشخاص ذوي مستوى تعليم ضعيف ؛ ويكفي أن يتراجع اهتمامهم قليلا حتى يمتنعوا عن الانتخاب .

وليس ثمة من يؤخر قراره سوى المنتخب اللامبالي . وعندما ينتمي المنتخب الى مجموعات ذات توجهات سياسية متنوعة ، يصبح موضوع

ضغوط متناقضة ؛ فالاغنياء الكاثوليك ، مثلا ، في الولايات المتحدة ، مشدودون في اتجاهات متعارضة ولديهم ميل لتأخير قراراتهم ، بأمل حصول أحداث تحل هذه الضغوط المتناقضة . ومن بين جميع هذه الضغوط التي استطاع المحققون أن يحددوها ، فان الخلاف السياسي ضمن العائلة هو الذي بدا الاكثر جدارة في تأخير القرار . وبعض الناخبين كانوا يترددون حتى داخل مكتب الاقتراع ، وينتهون عموما الى الاقتراع مثل نسيبهم الاقرب . من جهة اخرى ، وهنا تكمن احدى اكتشافات البحث الاكثر اثارة للاهتمام ، فان العوامل التي تهيء الناخب لاتخاذ قرار عاجل لصالح هذا المرشح أو ذاك تنتهي عموما بانتشاله عندما يكون بوضع لا يكون مؤهلا فيه لاتخاذ قرار مسبق . وهنا أيضا يخضع اختياره للتأثير العادي لميزاته الاجتماعية .

ان كل هذه النتائج تدفع الى الشك بعقلنة العمليات السياسية وبفائدة الحجج المستعملة من قبل المرشحين والاحزاب . ويتفاقم الشك عندما يتراءى ان حدة لجوء الناخب الى وسائل اعلام الحملة الانتخابية هي اكبر بقدر ما يكون قراره بالانتخاب مبكرا وحازما .

فالناخبون الاكثر اهتماما والاحسن اطلاعا يقررون قبل غيرهم ، ويتعرضون أكثر لوسائل الاعلام ، ويدركون الالتزام بصورة أفضل ، بدعاية المرشح الذي اختاروه . حتى أن الاشخاص الذين لم يقرروا بعد كيف يقترعون ، سوف يتعرضون ، أكثر ، مع ذلك للدعاية الانتخابية للحزب الذي تفضله سلفا محدداتهم الاجتماعية ـ الاقتصادية .

لقد توصل لازرسفيلد ومعاونوه الى خلاصة ان الحجج العقلية لم يكن لها أية قيمة بالنسبة للطريقة التي قرر بها الناخب :

« ان الحجج تساهم في المرحلة الاخيرة من القرار باعتبارها **مؤشرات** اكثر من كونها **مؤثرات** . فهي تدل ، مثل لوحات الاشارة على امتداد طريق ما ، على الطريق التي يجب اتباعها لبلوغ الجهة المحددة سلفا . . ان التهيئة السياسية المسبقة واخلاص الجماعة يحددان الاهداف ؛ ان كل ما تم قراءته وسماعه غير مفيد وغير فعال الا بالقدر الذي يقود فيه الناخب نحو المصير المختار سلفا ، وبالتالي فان الحجة الطارئة لا تتوفر لها **وظيفة اقناع** الناخب لكي يتحرك . بينما هي تمتلك وظيفة **اكتشاف طريقة التفكير والفعل بالنسبة له** التي تتطابق مع ارادته والتي

لـم يمتلك وعيا كاملا بها بعـد . ان القيام بحملة انتخابية لا يعني اعتبار الجمهور ممحيا من الحساب ؛ بل أن يبرهن للرجال والنساء ان قيامهم بالانتخاب هو التعبير الطبيعي ، المنطقي ، والضروري الى هذا الحـد أو ذاك عن الاتجاهات التي ارتبطوا بها دائما »(٤١) .

القسم الاخير من « اختيار الشعب » يعالج التماسك السياسي للمجموعات الاجتماعية ويحاول أن يفسر الارتباطات المعروضة آنفا . ان الاشخاص الذين يعملون ، يعيشون ، ويتسلون معا سيكون لديهم اتجاه للتصويت للمرشح نفسه ، سواء بواسطة الاختيار العفوي والاصلي ، أو نتيجة لعبة التاثير متن شخص على آخر . فالمحادثة السياسية بين الاصدقاء ، الجيران أو الأقارب خلال حملة انتخابية تقود ، بصورة عامة ، لتعزيز الاكثرية الموجودة داخل المجموعة . ويوجد هذا التاثير ، المسمى باند واغون(*) على مستوى الناخبين بكاملهم . ان الناس ينتظرون الانتصار للمرشح الذي يدعمونه ، ولكن العكس صحيح ايضا ، فهم يدعمون مرشحا ما لانهم يأملون انتصاره .

بعد « اختيار الشعب » لم تعد الحياة السياسية الاميركية كما كانت أبدا . فهذا الكتاب توصل الى الاستنتاج بأن الجانب الانتخابي « الذي يعرف كيف يلامس الانفعالات الشعبية بطريقة خبيرة » لديه فرصة قوية للنجاح ؛ ولقد كان ذلك علامة ظهور « الخبراء الانتخابيين » وبداية ازدهارهم في البلاد . وفي الستينات ، كانت نتائج هذه الابحاث شديدة الاندماج في الحياة السياسية لدرجة ان التلفزيون كان يعطي وبشكل طبيعي، الى جانب اعلان النتائج، تحليل اتجاهات الاقتراع حسب المدخول ، الدين ، العمر ، العرق ، المهنة ، الانتساب النقابي وعوامل اخرى جديرة بأن تلعب دورا ما . ولحسن الحظ ، فان الاضواء التي تدمها البحث الانتخابي كانت ايضا في متناول كل الاعداء السياسيين ولم تغير الصفة التنافسية للحملات الانتخابية بمقدار ما كانت تستطيع أن تفعل .

الجندي الاميركي

قبل هجوم بيرل هاربور بقليل والذي نظمه اليابانيون ، سئمي عالم

---

(٤١) The People's Choice, op. cit., pp. 83-84.

* Bandwagon ، عربة تحمل فرقة موسيقية في استعراضات السيرك او في الاحتفالات السياسية ، « المورد » .

الاجتماع الشهير صموئيل ستوفر مديرا مهدنيا لدائرة بحث انشئت حديثا ضمن ذلك الذي سيصبح فيما بعد « قسم الاعلام والتربية في جيش الولايات المتحدة » . وقد أوصى بهذا القسم فريدريك أوسبورن . الجنرال . ورجل الاعمال القديم ، وعالم الاجتماع الهاوي . واشار ستوفر فيما بعد الى ان دائرة بحثه عنيت بمسائل التنظيم العملي وليس بالبحث . فقد كان عليه القيام بتحقيقات حول الاتجاهات بين الفرق ، في كل مرة كانت القيادة العامة للجيش تعي فيها ان ثمة مسألة يرتبط حلها بمعرفة راي الجيش . فكان يطلب منه ، مثلا ، تحليل تردد مقاتلي الباسفيك الجنوبي في أخذ دواء « أتابرين » كاجراء واق ضد الملاريا . وان يجد ، من بين نوعي المسكرات ، ذلك الذي كان مفضلا من قبل الرجال في الالاسكا . وان يمتحن شروط غسيل الثياب في بناما ومواقف الفرق تجاه الصينيين على مسرح العمليات الهندي ـ البورمي . ان نظام النقاط المستعمل في تنظيم عملية التسريح قد درس من قبل هذه الدائرة . كما أعطى أيضا المعلومات الاساسية التي من خلالها تمت بلورة التشريع الخاص بتعويضات التسريح .

في نهاية الحرب العالمية الثانية كانت دائرة البحث قد أجرت مقابلات مع أكثر من خمسمائة ألف شخص ، وحررت أكثر من مئتي استمارة وحفظت بضعة مئات من التقارير . لكن المضمون العلمي لهذه الكمية الهائلة من المواد لم يكن مستغلا . وقد انيطت هذه المهمة بلجنة خاصة من « مجلس البحث في العلوم الاجتماعية » وضعت تحت رئاسة الجنرال أوسبورن وعهد بادارة عملياتها الى البروفسور ستوفر . وقد تم انجاز العمل خلال السنوات الخمس التي تلت الحرب ، بمساعدة مالية من مؤسسة كارنيجي . وهكذا تحولت الدائرة ، مع الاحتفاظ بالادارة نفسها ، الى فريق بحث علمي تحت رعاية مدنية . ونشرت نتائج أبحاث الدائرة في الاجزاء الاربعة من « **دراسات في علم النفس الاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية** »(٤٢) ، والمعروفة اكثر تحت اسم « **الجندي الاميركي** » ، وهو عنوان المجلدات الاولى .

---

٤٢ أبحاث في علم النفس الاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية :
Samuel A. Stouffer, et al., **The American Soldier: Adjustement During Army Life**, vol. 1, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1949. Samuel A. Stouffer, et al., **Measurement and Prediction**, vol. 4, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1950. Samuel A. Stouffer et al., **The American Soldier: Combat and its Aftermath**,

لقد كان مشروعا ضخما . فقد بلغت لائحة الجسم العلمي والاداري ١٣٤ اسما وتضمنت الاجزاء الاربعة أسماء خمسة عشر مؤلفا اساسيا . ولم يتح لأي بحث سوسيولوجي آخر مثل هذا النطاق . ومع انه استعان بعدة ميادين وبالاخص بعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي ، فان بحث « **الجندي الاميركي** » هو بالاساس سوسيولوجي سواء بالتقنية المستعملة ـ تحقيق الاتجاهات ـ او بطابع نتائجه . ومعظم النقاشات والتحاليل التي رافقت نشره تركزت على المضامين السوسيولوجية للمعطيات وليس على قيمتها النفسية ، التاريخية او الادارية .

ان الجزء الاول من التقرير مخصص للتكيف الفردي للمقاتلين ، خصوصا للكتلة الكبيرة من المدنيين الذين خدموا في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية . بينما يهتم الجزء الثاني بالمسائل الخاصة بالقتال وردود الفعل عليه . ويحلل الجزء الثالث ردات فعل الجنود على افلام التوجيه وغيرها من مواد الدعاية ؛ وهو يحتل مكانا مميزا في مجموع الكتاب . اما الجزء الرابع فيتناول في العمق نظرية وممارسة مقاييس الاتجاهات ، وايضا تقنيات التحليل الثلاث : البحث عن بنيات مستقرة ، التحليل بواسطة السلم البياني واستعمال اجوبة التحقيق لغايات تقديرية . ان المادة المقدمة كبيرة وينقصها التجانس لدرجة ان الذين ارادوا تفسيرها تصرفوا على العموم « كعميان الهندوستان » الذين اتوا لمشاهدة فيل فوجدوا انه يشبه ، حائطا ، او حبلا ، او شجرة ، او مروحة ، او حية حسب الجزء من الجسم الذي سمح لهم بلمسه . لقد اكد شيلز ، في دراسة مشهورة ، على ان معنويات المقاتلين ترتبط بدرجة واسعة باندماجهم في المجموعات الاولية في الجيش(٤٣) . هذه الفكرة صحيحة ، ولكن صلاة المقاتل وايمانه كانا يشكلان ، حسب معطيات التحقيق ذاته ، عنصر النجدة الاكثر فعالية من الصداقة نفسها .

وفي نفس المنحى ، فقد علق الكثير من مشاهير المحللين ، اهمية

---

vol. 2, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1949. Carl I. Hovland, Arthur A. Lumsdaine, Fred D. Stleffield, **Experiments in Mass Communication**, vol. 3, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1949.

(٤٣) Edward A. Shils. «Primary groups in the American Army», in Robert K. Merton and Paul F. Lazarsfeld, eds., **Continuities in Social Research**, Glencoe, Illinois, the Free Press, 1951.

قصوى على تأثيرات الحرمان النسبي : فالسود الموجودون في معسكرات الجنوب في الولايات المتحدة كانوا يتكيفون على العموم بشكل أفضل من الذين وجدوا في معسكرات الشمال لان العالم المدني هو الذي شكل عنصر المقارنة ، والشرط المدني الاسود الاكثر سوءا نسبيا في الجنوب كان يعادل موضوعيا معاملة الزنوج الاكثر سوءا في معسكرات الجنوب . ان هذا الاكتشاف قد حول انتباه بعض الاكتشافات الهامة الاخرى حول الحرمان المطلق ، وعلى الاخص واقع ان الوحدات العسكرية تبدأ بالتفكك عندما تتعرض للقتال خلال فترات جد طويلة .

وقد أعطى المحللون اهمية قصوى لتأثير الدور والوضع في تغيير الاتجاهات : فالاختلافات في الدور والوضع تقود ليس فقط الى اختلافات في الاتجاهات ولكن ايضا الى سوء فهم والى أحكام مسبقة مغلوطة من قبل مجموعة على اخرى . ولكنهم تركوا في الظل اكتشافا آخر ملحوظا : ففي زمن الحرب كان الجيش كله مطبوعا بشعور السخط تجاه الافراط في امتيازات الرتبة ، وهذا السخط كان له تأثير مضر جدا على المعنويات ، باستثناء سلاح الجو حيث الشروط كانت مختلفة . ان بحث « **الجندي الاميركي** » يشكل ، على الارجح ، النقد الاكثر تهديما لمؤسسة بهذا المستوى لم يقدم عليه أعضاؤها من قبل . وبخلاف اكثرية الدراسات عن الجماعة والتنظيم ، والتي تظهر غالبية الاشخاص راضين بتعقل عن الانظمة الاجتماعية التي ينتمون اليها ، فان احصائيات هذه الدراسة توضح الوضع غير المعقول للايين من الاشخاص المزميين في قتال ميئوس ، يخاض باسم قيمهم الاكثر اهمية والتي ، بمعظمها ، ليس لها ارتباط واقعي بقضيتهم ، كما توضح ان ليس لهؤلاء الاشخاص اية ثقة برؤسائهم ، بل احتقار للمعايير التي تحكم وجودهم . فمن بين الاشخاص الذين حاربوا في ما وراء البحار ، تساءل ثلاثة اشخاص على خمسة ، منذ عام ١٩٤٥ ، حول قيمة خوض غمار الحرب(٤٤) .

ان الجيش الاميركي في الحرب العالمية الثانية كان يتكون من رجال تطوعوا من أجل كسب حرب هي ، بالنسبة للاكثرية ، ذات اهداف بقيت دائما مبهمة بعض الشيء . ويبين الجزء الثالث ، دون ان يقصد ذلك تماما ، كيف نشأ هذا الوضع ولماذا لم يتم التمكن ابدا من تداركه . فمعظم اعمال هذا الجزء تتناول ردات فعل الجنود على سلسلة

---

(٤٤) The American Soldier, vol. 1, op. cit., chap. II, p. 440.

من الافلام معنونة بـ « **لماذا نحارب ؟** » كانت تروي ، بتفصيل ، الاحداث التي دفعت الى الحرب وكأن هؤلاء الجنود الذين تعرض عليهم هذه الافلام لم يسمعوا أبدا بهذه الاحداث أو لم يكوّنوا رأيا بصددها عندما حدثت . ان ذلك يفسر لماذا كانت مهمة هذه الافلام مقبولة بسهولة من قبل الجمهور العسكري ولماذا كان تأثيرها قليلا على المواقف تجاه الحرب .

بينما لامست ، تجارب أخرى ، الدعاية البحتة والبسيطة . وعندما انتهت الحرب في أوروبا ، تم ، مثلا ، تحضير نوعين مختلفين من برامج الراديو من أجل اقناع المقاتلين بأن أملهم في سلم قريب في الباسفيك كان بدون أساس (وقد بينت الاحداث بعد ذلك ان تفاؤلهم كان مبررا) . لقد كان الهدف هو معرفة ما اذا كان البرنامج الذي يقدم فقط حجج الموقع الرسمي (المتشائم) أكثر اقناعا من البرنامج الذي يقدم ، أولا ، وجهة النظر ، ويتجه من ثم الى تفنيد الحجج المتفائلة. لقد تبين، في البدء، ان البرنامجين تمتعا بفعالية متساوية؛ ففي الحالتين ، كان نصف الحضور تقريبا يغير رأيه في الاتجاه المراد . مع ذلك ظهرت اختلافات بعد تقسيم الحضور الى مجموعات فرعية . فالبرنامج الذي يقدم وجهتي النظر كان اكثر فعالية بكثير بالنسبة للذين كانوا يعارضون ، منذ البدء ، الموقع الرسمي ، بينما كان أقل فعالية بكثير من الاخر بالنسبة للذين أيدوا هذا الموقع منذ البداية . ولدى المقاتلين ايضا ذوي الثقافة الاقل ، فان البرنامج الوحيد الجانب كانت فعاليته اكبر ؛ بينما البرنامج الاخر كان فعالا عند حاملي دبلوم التعليم الثانوي والعالي . واذا أخذ في الاعتبار هذان المتغيران ، فان اختلافات الفعالية كانت حينئذ مفاجئة . ان التقديم الثنائي كان له التأثير الواضح في اقناع ٤٤٪ من الرجال الذين يتميزون بمستوى تعليم عال والذين عارضوا منذ البداية الموقع الرسمي. وبالمقابل ، فالذين أيدوا الموقع الرسمي منذ البداية والذين كان مستوى تعليمهم ضعيفا ، فان ذات البرنامج كان له في النهاية **تأثير سلبي** عليهم .

لقد أنجزت هذه التجارب ، بصراحة ، بهدف تعليم الضباط كيفية معالجة آراء وشعور الفرقة العسكرية . وكما يذكر ستوفر باستمرار فان دائرة البحث قد وجدت لغاية استعمال الاليات الاجتماعية كسلاح في خدمة القيادة . وقد أدى التزام الباحثين غير المتحفظ بجهود الحرب الى دعمهم ، وبدون نقد ، لأهداف القيادة العليا للجيش .

لقد اكتشفت أخطاء خطيرة في نظام القيادة . كان يتم تناولها كمسائل لها علاقة بمعنويات الفرق . ان امكانية اصلاح النظام لم تواجه من قبل دائرة البحث لانها لم تخرج عن كفاءة الرؤساء الذين سعت الدائرة لمعاونتهم . والتحسينات التي حصلت على اثر اكتشافات الباحثين لم تكن مؤثرة . فقد تم الرد على مطالب سلاح المشاة الذي كان يشكو من معاملته المتخلفة عن بقية الفرق، بايجاد فروقات فخرية. وعندما اكتشف الباحثون ان الاجراء الذي يجب ان يسمح بتنظيم تجاوزات السلطة لم يكن يؤدي الا الى خنق الشكاوى ، اقترحوا اصلاحات . بالطبع ، ولكن للتطبيق في **زمن السلم** .

لقد انتقد هذا التحيز بصرامة عند ظهور التقرير ، ولكن أحدا لم يستفد من هذه الكمية الهائلة من المعطيات لوضع برنامج منهجي لاصلاح المؤسسات العسكرية . ان الاصلاحات المدخلة في الجيش بعد الحرب العالمية الثانية صدرت عن الداخل وعنيت بالعدالة العسكرية ، وهو موضوع لم يتناوله تقرير البحث . ولكن هذه الابحاث كان تاثيرها كبيرا على النظرية السوسيولوجية وعلى تقنيات التحقيق بعد الحرب .

أبحاث حديثة

كان « **الجندي الاميركي** » البحث الاخير الملفت لنظر مجموعة علماء الاجتماع . مع ان عددا من الابحاث الملحوظة قد ظهر منذ ذلك الوقت ومع ان حجم الابحاث السوسيولوجية لم ينقطع عن النمو بوتيرة قريبة من وتيرة نمو البحث في العلوم الفيزيائية . وقد تميزت أعوام الخمسينات والستينات بازدياد المؤسسات والمعاهد ، وانتشار الاعانات المالية واجهزة الابحاث ، ونشوء بنوك المعلومات ، وادخال الحاسبات الالية وتعميم الابحاث السوسيولوجية عبر العالم . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك مزيدا من التخصص . وعلى غرار العلميين الاخرين (في الميادين الاخرى) ، درس علماء الاجتماع قطاعات ضيقة اكثر فاكثر من الواقع . ان نتائج البحث ، التي ، حتى عام ١٩٥٠ ، كانت تجد منفذا ملائما في اثنين أو ثلاث دوريات ، انحشرت الان في جشد من الدوريات المتخصصة ، البعض منها مكرس لمواضيع ضيقة بقدر مسائل الاقلية في المدارس الابتدائية في الوسط المديني ، أو ردة فعل الاطباء على الدعاية الصيدلانية ؛ والمنشورات هي من الكثرة بحيث أن القارىء

الواحـد ، مع كل حماسه ، لا يستطيع تصفحها كلها .

ومع النمو التدريجي لعـدد الابحاث ، تتجه وسـائل نقل النتائج الى أن تصبح أقل فعـالية . حتى الابحـاث الاكثر اهمية والاكثر دلالة من بينها لا تتوصل لاجتذاب الانتباه بمقـدار ما اجتذبت الابحاث التي تناولناها .

ان عـدد الابحاث الحديثة ، التي توضح قطاعـا متميزا من الواقع الاجتماعي ، متواضع نسبيا بغايـاته : عمل محكمة الجنايـات ، أو حقل السباق مثلا(٤٥) ؛ ـ كما ان هذه الابحاث لا تخاطر بتعميمات طموحة . وفي الوقت نفسه ظهر عـدد من المؤلفات الجديـدة حول مواضيع مثل التنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية والسلوك الجنسي للكـائن البشري ، التي تهم عـالم الاجتماع ولكنها مع ذلـك خارج ميدانه .

انه لمن الصعوبة بمكـان بالنسبة لي أن اثمن الابحـاث الحديثة بالثقة ذاتها التي ميزت الابحـاث التي سبقتها لانها لا تتفكك بقوة . في المقطع اللاحق سـأكتفي بتقديم جوانب البحث التي يجب ان تكون مألوفة للطالب المطلع في علم الاجتماع ، والتي يمكن تقسيمها كما يلي : تجـارب على المجموعـات الصغيرة ، تقـارير كينزي ، دراسات عن البيروقراطية ، دراسـات دوافع النجاح ، بحث عن المستشفيات ، عن الكوارث ، عـن ثقـافة الفقر ، وعلم اجتماع التنمية .

التجارب على المجموعات الصغيرة

تعود التجارب في المختبر على المجموعات الصغيرة ، في ميدان علم النفس ، الى القرن التاسع عشر . ولكن دراسة العلاقـات الاجتماعية بواسطة تقنيات المختبر لم تتم الا بعد الحرب العالمية الثانية، على اثر اعمال كورت لوين واتباعه ، المعروفة تحت اسـم ديناميكية الجماعة ، واعمال روبرت ف. بـالز وفريقه حول تحليل عمليات التفاعل . لقـد اعتبر الاول كعالم نفس والثاني كعالم اجتماع . وقـد ساهما سوية في توسيع ميدان علم النفس الاجتماعي الذي افتقدت طعمه ، بمعنى من المعـاني ،

---

(٤٥) مثلا : Abraham Blumberg, Criminal Justice, Chicago, Quadrangle Books Inc., 1967; Marvin B. Scott, the Racing Game, Chicago, Aldine Publishing Company, 1968.

العلوم المجاورة .

انه لمن المستحيل تلخيص نتائج الاختبار على المجموعات الصغيرة هنا . فثمة بعض الادلة ومصنفات النصوص خصصت لهذا الموضوع(٤٦) . ولن نشير الا الى بعض الدراسات بغرض تبيان أي أنواع من النتائج قد تم الحصول عليها بواسطة تقنيات المختبر .

في ١٩٥٠ نشر بالز مؤلفه « تحليل عملية التفاعل »(٤٧) نتيجة أعماله في مختبر العلاقات الاجتماعية في هارفرد . ويرتكز العنوان الى تقنية تخيلها بالز لقياس التفاعلات في مجموعات النقاش الصغيرة . والتفاعلات التي تنتج تقسم الى « أفعال » . و « الفعل » هو الجزء الاكثر صغرا من تدخل ما ، من رأي ما (وفي بعض الاحيان هو تعبير بسيط او حركة) وهو ذو دلالة اجتماعية يمكن استخلاصها . وكل فعل يدون بواسطة مراقبين على شريط متحرك تم ضبطه لمسافات قصيرة من الوقت ، بحيث تتوفر فيما بعد ، امكانية مقارنة اشرطة المراقبين المختلفين فيما بينها ومع تسجيلات حرفية للشعبة نفسها . ان نظام الترميز الذي صنفت على اساسه الافعال معقد واستعماله يتطلب تدريبا مكثفا . وكل فعل يجب ان يصنف في احدى الفئات الاثني عشر من نظام الترميز ، الذي يبتدىء بـ « يظهر التضامن » وينتهي بـ « يظهر العداء » . ويسمح نظام التدوين بتوضيح أي من أعضاء المجموعة تأتي منه مبادرة الفعل والى من تتوجه ، وبتمييز الافعال الجماعية للمجموعة ، وأفعال الفرد الذي يتوجه للمجموعة بأسرها والافعال الانطوائية . ان هذه المقولات هي متعادلة : فمن جهة ، ردات فعل بانفعالية ايجابية ، ومن جهة ثانية ، ردات فعل بانفعالية سلبية ، وبين الاثنتين « مجال اجرائي »

---

(٤٦) ثمة ملخصات رائعة عن نتائج التجارب على المجموعات الصغيرة قدمت لنا في :
Gardner Lindzey, «Handbook of Social Psychology», seconde édition, Cambridge, Mass., Addison-Wesley publishing Company, 1968, et dans A. Paul Hare, Edgar F. Borgatta and Robert F. Bales, «Small Groups: Studies in Social Interaction», N. Y., Alfred A. Knopf, 1965, édition revue. En français: K. Lewin «la psychologie dynamique», Paris, P.U.F.

(٤٧) Robert F. Bales, «Interaction Process Analysis: a Method for the Study of Small Groups, Cambridge, Mass., Addison-Wesley Press, Inc., 1950.

ومن اجل تقييم جديد لهذه التقنية انظر :
Nancy E. Waxler and El'ot G. Mishler «Scoring and reliability problems in interaction process analysis», Sociometry, vol. 29 (1), mars 1966, pp. 28-40.

من الاسئلة أو الاجوبة الادواتية(*) . كل زوج من الفئات السلبية والايجابية يمثل نمطا من المشاكل من بين ستة أنماط . والذي على كل مجموعة أن تفتش باستمرار ، من خلاله ، على حل لبلوغ الاهداف الجماعية . ان الاهمية المعطاة **للافعال الاجتماعية** . لاشكالها الايجابية أو السلبية . والمتطلبات الوظيفية للنسق الاجتماعي . تاتي من تاثير بارسونز . والذي كان بالز من أتباعه .

وبفضل هذه التقنية ، تم الاكتشاف ، من جملة ما اكتشف ، بأن عدد مبادرات الفرد يتوافق بشكل وثيق ، وغالبا على الوجه الاكمل . مع كمية التلقي . بمعنى آخر ، فان الاشخاص الذين يأخذون غالبا الحديث في اجتماعات المجموعة هم أيضا الاشخاص الذين يتم التوجه اليهم أكثر وبالتأكيد فهم الذين يمارسون النفوذ الاكبر . وثمة اكتشاف آخر هام . اذ يوجد ، على العموم ، رائدان ، وليس رائدا واحدا : رائد عمل أو رائد « أدواتي » تسهل كفاءته تحقيق الاعمال الجماعية للمجموعة . ورائد انفعالي أو « تعبيري » ، يحافظ على تضامن الجماعة . ان رائد العمل هو في الغالب عضو الجماعة الاكثر احتراما ولكن ليس الاكثر ودا . وبموازاة هذا الاكتشاف التجريبي ، فقد طور بارسونز وبالز نظرية عن البنية العائلية تعطي للاب دور الرائد العملي وللام دور الرائد الانفعالي .

وطبقا لتقليد لوين . يشكل **علم نفس الانصواء** لستانلي شيشتر . المنشور عام ١٩٥٩ ، دراسة ملحوظة(٤٨) . ان شيشتر . التجريبي الموهوب . الذي يعرف استعمال نتائج كل تجربة من أجل تخطيط التجربة التالية . قد بدأ بدراسة تأثيرات الانعزال الكامل على الافراد . فقد وضع بعض الطلاب المتطوعين . لوحدهم ، في غرف حاجبة للصوت وبدون نوافذ . وبشكل فاجأ الجميع كانت ردة الفعل النموذجية الضجر أكثر منها الضيق . وقد بدا ان واقعة الانعزال عن كل احتكاك بشري لم تحدث قلقا عندما لم تتدخل عناصر أخرى في وضع المعزول . وقد لجأ شيشتر فيما بعد الى سلسلة من تجارب المجموعة حيث اعلم المشاركون في التجربة بانهم سيواجهون تجارب مختلفة غير سارة وعليهم ان

---

* الادواتية • Instrumental

(٤٨) Stanley Schachter, the Psychology of Affiliation: Experimental Studies of the Sources of Gregoriousness, Stanford, California, Stanford University Press, 1959.

يختاروا . اما البقاء وحيدين . واما الانضمام الى مجموعة قبل وبعد هذه التجارب . ان الغاء وجبات الاكل لبعض المشاركين أدخل عنصر توتر جسدي . وقد كان القلق ، المصحوب بتهديد ، أقوى ، على السموم ، عند الافراد المعزولين ؛ وأغلبية المشاركين اختارت مواجهة التهديد بشكل مشترك . وبادخال الجوع باعتباره مسببا لتوتر اضافي كان يتم رفع درجة القلق وتخفيض رغبة الحماية من قبل المجموعة . وخلال هذه التجارب ، أظهر بعض الافراد حاجة للحماية أكثر قوة بكثير من الاخرين . وتبين لشيشتر بأن وضع المشارك في عائلته يساهم كثيرا في تحديد الاختلاف . فالذين كانوا ابكارا(*) أو أولادا وحيدين . كان لديهم ميل أكثر للبحث عن حماية المجموعة عندما يشعرون بقلق قوي . وكانوا ينزعون أكثر الى الجزع ويتحملون الالم اقل من غيرهم ويصبحون أكثر قلقا وخوفا من الذين كان عندهم أخوة وأخوات أكبر منهم . وخارج اطاره التجريبي ، لاحظ شيشتر ان عددا كبيرا من الوقائع يدل ، ببداهة ، على ان الابكار كانوا أكثر استقلالية اجتماعيا . فهم يقبلون بسهولة أكثر المعالجة النفسي ـ مرضية ويرتبطون بقوة أكبر بأهلهم وأساتذتهم ، ويملكون حظا أقل في أن يصبحوا مدمني خمر ، أو في أن ينجحوا كمرشدي صيد .

ومن بين الابحاث التجريبية ، تشكل « تجربة روبير في الكهف »(٤٩) أحد الاعمال الاكثر اثارة للانتباه . فقد انجزت هذه التجربة من قبل مظفر شريف واعوانه في مخيم للعطل في أوكلاهوما . والمشاركون في التجربة كانوا جميعهم طلابا يبلغون سن الحادية عشرة تقريبا ، بيضا ، بروتستانت ، ينتمون للطبقة المتوسطة . وقد تم اختيارهم لتأليف عينة متجانسة قدر الامكان ، وأبعدت كل شخصية « غير طبيعية » . وبعد فترة قصيرة من وصولهم للمخيم قسم الطلاب لمجموعتين مختلفتين من وجهة نظر الاستعدادات الجسدية ومن وجهة نظر النماذج الشخصية وأيضا من وجهة نظر علاقاتهم السابقة . ووضعت المجموعتان في سلسلة من المواقف حيث تعارضت مصالحهما وحيث ان كل مجموعة شكلت حاجزا لأهداف المجموعة الاخرى، مما اثار وضعية حربية مصغرة . فقد تبنت كل

---

* جمع بكر .

(٤٩) Muzafer Sherif, et al., «Intergroup Conflict and Corporation: Robber's Cave Experiment», Normain Oklahoma, University of Oklahoma Institute of group relations, 1961.

مجموعة نظام تنضيد ونمطا سياسيين خاصين بها . ان اختلاف النظامين الاجتماعيين اللذين ظهرا كان مدهشا . والعداوة المتبادلة ، مع كونها تجريبية ، فانها لم تكن أقل واقعية بحيث ان الباحثين وجدوا صعوبات فائقة في منع موجة العنف . وبخلقهم ، هكذا ، وبشكل اختياري ، وضعا من الصراع الاجتماعي ، باشر الباحثون اختبارا على شروط اقامة السلم . فاكتشفوا انه بالامكان الحصول عليه باستدراج المجموعتين لمتابعة أهداف لا تستطيع اية واحدة منهما بلوغها بواسطة جهودها الخاصة . ولذلك اقيم تعاون قبل على مضض ونجح في تبديد حالة التوتر التي أوجدتها الصراعات السابقة . وانتهى الفصل باكرا في المخيم ليكون في الامكان تحديد تأثيرات السلم على البنية الداخلية لكل مجموعة .

لقد تابع علماء النفس وعلماء الاجتماع هذه الاعوام الاخيرة ابحاثا حول التحالفات في الثالوث خلال تجارب المختبر(٥٠) . ان الثالوث هو نظام اجتماعي مؤلف من ٣ أعضاء . وهو احدى الظواهر المألوفة جدا في التجربة الانسانية. وأعضاء الثالوث ليسوا بالضرورة أفرادا، فبامكانهم ان يكونوا جماعات تعمل كوحدات . وفي معظم تجارب المختبر حول تكوين التحالفات ، تتعلم المجموعة المختبرة والتي تتألف من ٣ متطوعين لعبة تجريبية تسمح للاعبين بالتحالف ضد الثالث .

ان زيمل ، بتحليله للتغييرات التي تطرأ على نشاطات الجماعة عندما يتم تغيير حجمها ، هو الاول الذي لاحظ بأن الثالوث لديه ميل الى الانقسام بحيث ان كل عضوين يتحدان ضد الثالث . كما كان الاول ايضا في التقاط الالية التي من خلالها تتحول القوة الى ضعف والضعف الى قوة خلال تكوين التحالفات . وتجعل بعض مظاهر السلطة من هذا التحول امرا محتوما تقريبا في الثالوث . وفي ثالوث يعرف بالنموذج ٥ مثلا ، حيث أ اقوى من ب و ب اقوى من ث ، ولكن حيث أ ليس بأقوى من ب و ث مجتمعين ، فان تكوين أحد التحالفات الثلاثة الممكنة يقلب توزيع السلطة السابقة . وقد بينت تجارب المختبر ان ب و ث هو التحالف الاكثر احتمالا . وهكذا فان تفوق أ ، بالمقارنة مع اللاعبين الاخرين ، يؤمن ، في الواقع ، هزيمته .

---

(٥٠) ملخص جزئيا في : T. Caplow, «Two Against One : Coalitions in Triads», Englewood Cliffs, New Jersey, Prentice-Hall, Inc., 1968. Traduction française, Deux contre un, à paraitre dans la collection U2.

وتظهر تجتارب المختبر انتظامات كهذه بحيث يمكن توقع تكوين تحالف خاص بدرجة عالية من الاحتمال . وهذا مثل جميل على الفائدة المحتملة لتجارب المختبر . ان الثالوثات المشكلة من قبل الجماعات، سواء تعلق الامر بزمر ، بأحزاب سياسية ، أو قوميات ، تقدم سلوكا مشابها لسلوك الثالوثات التجريبية ، والنتائج المحرزة ، بواسطة العاب المختبر ، يمكن ان تفيد في تحليل مواقف يستحيل تحليلها بواسطة الاختبار المباشر .

تقارير كينزي

ان الدكتور الفريد ت. كينزي ، عالم الحيوان الهادىء والخجول من جامعة انديانا ، والذي اشتغل خلال أعوام في دراسة غريبة حول الزنابير ، قرر المباشرة بأبحاث حول السلوك الجنسي للانسان . وحوالى ١٩٤٨ ، كان كينزي وفريقه(٥١) قد أجروا مقابلات مع اكثر من ١٢ الف اميركي من الجنسين ومن كل الاعمار بواسطة استمارة من ٥٢١ نقطة . وقد دونت الاجوبة بواسطة ترميز خاص تخيله كاتب شيفرة وحفظت ملفات البحث بعناية فائقة كأنها كانت تحوي معلومات سرية عسكرية .

وقد أجرى كينزي بنفسه خلال أعوام عديدة اكثرية المقابلات ولم يساعده الا حفنة من المعاونين . ان المهارة والاهلية اللتين اظهروهما في ادارة مستجوبيهم لم يكن لها مثيل . فخلال سنين طويلة توجهوا الى الالاف من الاشخاص الممثلين لكل المناطق ، المهن ، المستويات الاجتماعية ـ الاقتصادية ولكل انماط الشخصية : للمحكومين ، للراهبات ، للمنحرفين جنسيا وللعوانس ، للصيارفة والسماسرة ، للخادمات وللاطباء النفسيين . كان هدفهم وضع عينة ممثلة للسكان ، ويبدو انهم قد توصلوا لذلك بالرغم من بعض الاخطاء المهمة في طريقة تحديد العينة .

---

(٥١) Alfred C. Kinsey et al., «le comportement sexuel de l'homme», Paris, Editions du Pavois, 1948. «Le comportement sexuel de la femme», Paris, Amiot-Dumant, 1954.

اعدت اعمال كينزي بعد وفاته عام ١٩٥٦ من قبل مساعديه ، ولكن نشر هذه الاعمال كان موجها الى اختصاصيين اكثر منه الى الجمهور العريض .

يجمع بحث كينزي كل أشكال السلوك الجنسي ؛ أي كل أشكال النشاط الجسدي الذي يحث على الاثارة الجنسية . ويمكن نعت تحديده للسلوك الجنسي بالسلوكية . وما عدا استثناءات نادرة ؛ فان المظاهر الجسدية هي التي اهتم بها أكثر من غيرها . وقد استبعدت وجهة نظره مجموع العواطف والانفعالات ؛ ولوحظ غالبا عدم ظهور كلمة حب في فهرست التقريرين . ولكن ؛ وعلى العكس من ذلك ، فان مفهوم النشاط الجنسي وسع أكثر من النشاط الجنسي المسمى « طبيعي » ليشمل العلاقات الجنسية المثلية (أي داخل الجنس الواحد) ، ممارسة العادة السرية ، التدنس الليلي ، والعلاقات مع الحيوانات .

ان اكتشافات كينزي الرئيسية كانت الاتية :

١ ـ ان النماذج الرئيسية للانحراف الجنسي ليست نادرة ولا معادية للمجتمع ، وتتوزع بصورة عريضة على كل شرائح المجتمع .

٢ ـ للرجال ، في المتوسط ، نشاطات جنسية ابكر ، متكررة أكثر ، وهي أكثر انتظاما ، وأقل انتقائية من النساء .

٣ ـ يختلف الافراد من نفس العمر ونفس الطبقة ونفس النمط الاجتماعي كثيرا بتنوع وبتكرار نشاطهم الجنسي .

٤ ـ ان شكل وتكرار النشاط الجنسي شديد التأثر بالعمر ، بالجنس ، بالدين ، بمستوى التعليم ، بمكان السكن (المدينة او الريف) ، وبالمركز المهني .

لقد كانت هذه الاكتشافات براهين على مدى الانتشار الواسع لأشكال النشاط الجنسي المحرمة صراحة ، في الولايات المتحدة ، من قبل القانون ، والمبادىء الدينية والعادات والتي تم ابرازها بشكل واضح ، على غير ما كان متوقعا . وقد غيرت هذه البراهين جذريا الصورة التي كانت عند غالبية الناس عن الحياة الجنسية بمن فيهم المنحرفون العاديون . فأكثرية الاشخاص المستجوبين كانت تفكر بأن سلوكها هو اكثر انحرافا مما هو في الواقع . وقد كانت مدركة لعدم امتثالية نشاطاتها الجنسية ولكنها كانت تقلل من نسبة تكرار هذا الانحراف لدى الناس .

وقد تبين لكينزي بأن ٥٠٪ من النساء المتزوجات من عينته قد

مارسن الجماع قبل الزواج . حوالى النصف منهن مع رجل لم يكن زوجهن المقبل وحوالى العشر مع ستة أشخاص أو أكثر . وأكثر من ثلثي الرجال من مستوى تعليم مرتفع ، مارسوا الجماع قبل الزواج . بينما مارس ذلك ، عمليا ، كل الذين من مستوى تعليم ضعيف . وفي الشرائح الاكثر تعلما ، استبدل الجماع بدرجة معينة بـ « بيتنغ » وهذا يعني القبلات والمداعبات الموصلة للنشوة . وقد تعاطى ذلك ٣٩٪ من النساء عندما كان عمرهن ٢٥ سنة ، و ٣١٪ من الرجال . وعند النساء ، كان المتوسط ٨ شركاء . وقد أشار ٢٦٪ من النساء المتزوجات و ٥٠٪ من الرجال المتزوجين الى انهم مارسوا على الاقل مرة واحدة الجماع غير الزواجي .

أما العلاقات الجنسية المثلية (داخل الجنس الواحد) فقد كانت أكثر ترددا لدى الرجال من النساء . واعترف ٣٧٪ من الرجال و ١٦٪ من النساء بأنه كانت لهم تجربة واحدة مؤدية للنشوة ، على الاقل . وكانت النسبة مرتفعة أكثر في السجون والمؤسسات التي تمارس العزل الجنسي . وأقام ٤٪ من الرجال فقط علاقات لواطية .

وقد مورست العادة السرية ، حتى النشوة ، من قبل ٥٨٪ من النساء و ٩٢٪ من الرجال . واستعمالها العادي كان اكثر تكرارا عند الرجال ، وفي عدد كبير من الحالات كانت تستمر ممارستها خلال زواج نشيط جنسيا . وقد صرح ٤٪ من النساء و ٨٪ من الرجال داخل العينة بأنه كانت لهم علاقات مع الحيوانات تصل حتى النشوة .

وبقدر ما هي فاقعة هذه البراهين على أهمية الانحراف ، فانها مع ذلك لا تشير الى أن الضوابط الشائعة هي بدون فعالية نهائيا . كما اعتقد بقول ذلك بعض قراء تقارير كينزي المتسرعين . اذ أن نصف نساء العينة كن عذارى عند الزواج ، و ٥٠٪ من بين الاخريات فقدن عذريتهن لصالح زوجهن المقبل . وأكثر من نصف الازواج وثلاثة أرباع النساء بقوا مخلصين لشريكهم خلال مرحلة الحياة الزوجية كلها . وغالبا ما انحصرت العلاقات الجنسية داخل الجنس الواحد ، بتجارب المراهقة ، أو كانت نتيجة ظروف خاصة ؛ ان الغالبية من الجنسين لم تكن لديها أية تجربة في العلاقات الجنسية .

لقد ظهر التقرير حول الحياة الجنسية الذكورية عام ١٩٤٨ ، بينما ظهر التقرير حول الحياة الجنسية الانثوية في ١٩٥٣ ، وقد ترك

التقريران اثرا عميقا في العالم كله . وقد مات كينزي في ١٩٥٦ . أما المؤلفان المكملان اللذان كتبهما مساعدوه واللذان نشرا منذ ذلك الحين : « الحمل . الولادة ، الاجهاض ١٩٥٨ ، ومنتهكو الجنس : تحليل للنماذج ١٩٦٥ » ، استرعيا من الاهتمام العام اقل بكثير ، مع انهما يحتويان على معلومات لم يكن بالمستطاع الحصول عليها حتى ذلك الوقت .

ان هذه التقارير مهمة ليس فقط لانها تقدم عددا كبيرا من المعطيات تختص بالنشاطات الجنسية ، ولكن ايضا لانها ادخلت هذا الموضوع في اطار البحث السوسيولوجي . وقد بينت مرة والى الابد بأنه يمكن دراسة كل اشكال السلوك الحميمة جدا والاكثر مدعاة للاثم بواسطة تقنيات التحقيق. وقد جرّبت مراقبة صدق الاجوبة من قبل الباحثين بعدة اشكال : أعادوا استجواب بضعة مئات من المشاركين ، وقارنوا الاجوبة بين الازواج والزوجات ، وجعلوا نتائج المقابلات تتقاطع مع وقائع خارجية . ويبدو من خلال كل هذه الروائز بأن المعطيات بمجموعها أمينة . ومن المستغرب انه لم تجر محاولة للرد على هذا التحقيق في بلدان اخرى ، حيث كان بالامكان ان تكون مقارنة النتائج مثيرة جدا للاهتمام .

دراسة التنظيمات البيروقراطية

ان مفهوم البيروقراطية عند ماكس فيبر خدم كاطار نظري لعدد كبير من الابحاث التي ابتدات بالظهور في الاعوام الخمسين . والنتيجة المزدوجة لهذه الابحاث كانت تعميم وتوضيح المفهوم . ولم يعد بالامكان الشك ان البيروقراطية تعمل كما افترض ماكس فيبر بالاساس ، اي كنوع من آلة كبيرة مشيئة تجتهد في توزيع الجهود وموازنة التوترات الاجتماعية . ومن جهة ثانية بينت الابحاث ان البيروقراطيات هي، بهذا المعنى ، انسانية ؛ فهي لا تخضع ابدا للنصوص التي تحكم مراكزها ، وهي عرضة للعديد من انحرافات الوظيفة والنمط ، ويمكنها اكتساب مميزات ليست متوقعة حتما .

لقد استشفت بعض هذه المظاهر خلال تجارب هاوثورن ، وحتى قبلها ، ولكن الابحاث الحديثة ذهبت ابعد من ذلك بكثير . فدراسة

غولدنر عن « **سلوك البيروقراطية الصناعية** »(٥٢) هي دراسة للقيم ، والقواعد وتطبيق هذه القواعد في منجم جبس وفي المكاتب المرتبطة به . وقد تبين لغولدنر بأن شكل ومضمون قاعدة ما لا يعنيان لنا الشيء الكثير حول الطريقة المطبقة بها فعليا . فتطبيق القاعدة ، مهما كانت ، هو نتيجة اتفاق معقد بين الجماعة التي تشرع القاعدة والجماعة التي عليها أن تطبقها .

ففي المنجم كانت بعض العادات ذات الفائدة المعترف بها من قبل الجماعتين ، كالامتناع عن التدخين في مستودعات المتفجرات مثلا ، ملحوظة بدقة . وبالنسبة لغيرها ، كالامتناع عن التدخين في بعض أماكن العمل حيث التدخين لا يشكل اي خطر ، فقد كان مقبولا عدم التقيد الحرفي بذلك ؛ ان نوعا من التواطؤ على الاضرار بين الجماعتين كان يخفي المخالفات . ولكن عندما كان صراع المصالح يبقى دون حل ؛ فان العادات لم تكن تطبق ابدا . ومن ناحية أخرى ، استطاع غولدنر ان يبين كيف ولماذا يمكن لتغيير رجل في موقع مهم أن تتوفر له فرص كبيرة في تحديد التغييرات في النمط الاداري ، في نظام القواعد وفي تراتبية التنظيم المعني .

وثمة دراسة اخرى لبلو حول : **ديناميات البيروقراطية**(٥٣) مبنية على المراقبة المباشرة لسلوك موظفي ادارتين اميركيتين خلال عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ . واحدة منهما كانت مكتب للتوظيف الوطني تستجوب طالبي العمل وتوزع عليهم الوظائف في صناعة الثياب . بينما كانت الاخرى دائرة فدرالية مسؤولة عن تطبيق بعض القوانين التي تحكم الاجور بحدها الادنى في الصناعة .

تختلف الادارتان كثيرا بوظيفتيهما وبالجو السائد فيهما . ولكن من المؤكد ان الاثنتين تقدمان بنيتين متوازيتين تطورتا من خلال الاستجابة لحاجات موظفيهما الاجتماعية ، لكنهما لم تظهرا في المخططات التنظيمية ولم تكونا منسجمتين مع أهدافهما كليا .

ففي مكتب التوظيف المراقب من قبل الدولة ، تسمح بعض

---

(٥٢) Alvin W. Gouldner, «Patterns of Industrial Bureaucracy», Illinois, the Free Press, 1954.

(٥٣) Peter M. Blow, «The Dynamics of Bureaucracy», Chicago, University of Chicago Press, 1955.

الاجراءات بتحديد الانتاجية وبايصال النشاطات المرئية للموظفين الى حدها الاعلى على حساب مصالح الزبائن . في هذه الادارة ، كما في غيرها من الاجهزة الاجتماعية التي جرت دراستها منذ ذلك الحين . تسود عداوة بارزة بين الموظفين والزبائن .

في الادارة الفدرالية ، كان التباعد بين العادات الرسمية والواقع يرتدي شكلا مختلفا . ومع ان كل موظف كان عليه وحده تناول الحالات التي تحال اليه ، فان نظاما معقدا جدا من العون والمساعدة المتبادلة كان قيد التداول . في هذه الحالة ، فان واقع الابتعاد عن العادات الرسمية يقود بدون شك الى مستوى عال من الفعالية . اذ شكل الموظفون جماعة موحدة ومتماسكة ، خاضعة لتراتبية غير شكلية مبنية على الجدارة . ان تبادل الخدمات والاستشارات متداول داخل الجماعة ويستطيع الموظف، عن طريق الاستعانة بالمعارف الموضوعة جماعيا ، تخفيف الاخطاء التي سيقترفها دون شك وحده . ومع ان المؤلف لا يشير الى ذلك صراحة فانه من المؤكد ان هذه التدابير كانت تسمح للموظفين بقلب القانون وتكييفه حسب حاجاتهم الجماعية في الوقت نفسه .

ان مركز الاهتمام الرئيسي في دراسة كروزييه عن البيروقراطية في فرنسا(٥٤) كان تنوع ظاهرة البيروقراطية المكتشفة في الابحاث السابقة . فقد درس كروزييه ثلاث منشآت حكومية واختار في كل مرة دراسة المنشأة بكاملها . ومع ان هذا الاختيار للمقياس قد أدى الى خسارة التفاصيل ، فان البحث يبين بوضوح كيف تنمو ، في وحدات بيروقراطية يفترض أن تكون متشابهة ، بنيات مختلفة .

ان الاكثر اثارة للاهتمام من بين المنشآت المدروسة من قبل كروزييه هو مصنع للدولة يملك انشاءات موزعة في انحاء البلاد المختلفة . في هذه الفروع يتم تحييد الازمات الداخلية عن طريق الاتيان بجهاز الموظفين، حسب المستويات ، من مصادر مختلفة للاستخدام وعن طريق الاحتفاظ بمخططات مختلفة للمهنة طبقا لكل واحد من هذه المستويات . وهكذا فقد أتى بالمدراء حسب الاقدمية ، وليس حسب الجدارة من ضمن المدراء المعاونين الذين تخرجوا بكاملهم من كلية مشهورة للمهندسين .

---

(٥٤) Michel Crozier, «Le phénomène bureaucratique», Editions du Seuil, 1965.

ولم يخرج اي من المديرين من صفوف هؤلاء .

ان الفئتين الاخريين من الموظفين الكبار ، المهندسين التقنيين والمديرين الاداريين ، محصورتان بالشكل نفسه ، فكل واحدة منتقاة طبقا لتأهيل مفروض وخاضعة للترقية حسب الاقدمية . ويسود فصل مشابه بين عمال المشاغل اليدويين . فقد جمع رؤساء العمال وموظفو الصيانة ومديرو الالات من مصادر مختلفة وبقوا محصورين وغير قابلين للتبديل خلال كل فترة وجودهم المهني . وهكذا أمكنت السيطرة فعليا على كل نزاع بين الادارة واليد العاملة ولكن ثمن ذلك كان فاعلية ضعيفة ، واتصالا غير كاف ومعنويات متدنية . لقد اعتقد كروزييه انه استطاع ان يوضح الروابط بين هذا النمط من التنظيم وبعض الثوابت في المجتمع والثقافة الفرنسيين .

لقد برهنت هذه الابحاث ان تنظيم النسق البيروقراطية يمكن أن يتغير بما لا نهاية له ، وان أية من التنظيمات ، من جهة أخرى ، لا تسير طبقا لمخطط صانعيها . ومن زاوية معينة ، فان الاهداف التي تحكم ولادة بيروقراطية معينة تصبح غير معروفة بفعل التغييرات التي يدخلها الموظفون تفتيشا عن مصالحهم الشخصية .

دراسة المستشفيات

بالارتباط الوثيق مع الابحاث حول البيروقراطية ، بوشرت دراسة المستشفيات ، من خلال العودة الى الملاحظة المشاركة ، في نفس الفترة تقريبا ، وفي الولايات المتحدة . وتتابعت هذه الدراسة خلال سنوات عديدة بدعم متحمس من قبل جهاز الصحة العامة والمؤسسات الوطنية للصحة . واهتمت هذه الابحاث على الاخص ، مع اهمالها الجانب البيروقراطي للمستشفيات ، بالسيرورة العلاجية وبالتفاعلات بين الجسم الطبي والمرضى . والمؤلف الاول المهم كان « **المستشفى العقلي** » لستانتون وشوارتز ، وهو دراسة عن مؤسسة خاصة لطب الامراض العقلية نشرت في ١٩٥٤(٥٥) . كما أن ثمة دراسات أخرى مهمة عن

---

(٥٥) Alfred H. Stanton and Morris S. Schwartz, «The Mental Hospital: A Study of Institutional Participation in Psychiatric Illness and Treatment», New York, Basic Books, 1954.

مستشفيات الامراض النفسية(٥٦) ، ودراسات متعددة لمستشفيات الطب العام(٥٧) ، وايضا ثمة عدة ابحاث عن التاهيل الطبي الذي توفره المستشفيات(٥٨) ظهرت منذ ذلك الوقت . كان الاكتشاف يكمن في التنوع المدهش للبنيات ، ولم تفعل الابحاث المتتالية سوى اطالة لائحة التشويهات الممكنة للعقلنة الاكيدة للمؤسسات العلاجية ، دون ان تكون قادرة على توضيح كيفية تعطيل السيرورة أو أن تتمكن من توقع نمو الانحرافات .

ثمة اكتشافان مهمان في كل دراسات المستشفيات . الاول ، هو أن المرض (المرض العقلي على الاخص ، ولكن ليس حصرا) ، ظاهرة اجتماعية ، وان عوارضه وظواهره في المستشفى مشروطة دائما بالتفاعلات بين المرضى انفسهم ، بين المرضى والجهاز الطبي وداخل الجهاز الطبي . وتوضح دراسة حديثة انه حتى تصريحات الوفاة تبنى على براهين سوسيولوجية اكثر منها فيزيولوجية. ومع اننا نتخيل دائما ان المستشفى يتألف من نوعين من الناس : المرضى الذين يخضعون سلبيا للعناية من ناحية ، الاطباء ، الممرضات ، التقنيون وجهاز القاعات الذين يديرون العناية من ناحية ثانية ، فان المستشفى العصري هو نظام اجتماعي حيث اعضاء الجهاز والمرضى هم ، في الوقت نفسه ، وتقريبا بالدرجة نفسها ، ذوات ومواضيع ، قادرون على اتخاذ مبادرة عمل ما أو تلبية مبادرات الاخرين ، بالرغم من الاختلافات الكبيرة في المركز والسلطة الملازمين لواقعهم(٥٩) .

---

(٥٦) مثلا : Ezra Stoland and Arthur L. Kobler, «Life and Death of a Mental Hospital», Seattle, University of Washington Press, 1965; Robert Rubeinstein and Harold D. Lasswell, «The Sharing of Power in a Psychiatric Hospital», New Haven and London, Yale University Press, 1966.

(٥٧) انظر بصورة خاصة : Rose Laub Coser, «Life in the Ward», East Lansing, Michigan, Michigan State University Press, 1962 et Temple Burching, Edith M. Lentz and Robert N. Wilson, «The Give and Take in Hospitals: a Study of Human Organization in Hospitals, New York, G. Putman's Sons, 1956.

(٥٨) مثلا : Robert K. Merton, George G. Reader, Patricia L. Kendall, eds. The Student Physician, Cambridge, Mass., publié pour the Commonwealth Fund par Harvard University Press, 1957, Howard S. Becker, et al., «Boys in White: Student Culture in Medical School», Chicago, University of Chicago Press, 1961.

(٥٩) Stanton et Schwartz, op. cit.

بحث حول الكوارث

ان البحث حول الكوارث ، الملخص بشكل ممتع في مؤلفات بارتون(٦٠) وبيكر وشابمان(٦١) ، يؤلف فئة أخرى مهمة من الاعمال المعاصرة . انه يعود الى باحثين مستقلين ، استطاعوا ، في مواقف متنوعة جدا ، ان يغنوا علم الاجتماع بمعارف جديدة ومؤكدة . ومع أن البحث الاول حول علم اجتماع الكارثة قد نشر في ١٩٢٠(٦٢) ، فان هذا النوع من الابحاث لم ينتشر أبدا قبل الخمسينات . ولكن حوالى ١٩٦٢ ، وعندما حضر بارتون بيبليوغرافيا نقدية حول هذا الموضوع ، كان ثمة دراسات مهمة قيد الاستخدام حول الاعاصير ، الفيضانات ، الزوابع ، المجاعات ، الكوارث المنجمية ، الازمات الزراعية ، المذابح ، القصف وكل انواع الكوارث الاخرى .

كان لدراسات الكوارث مراكز اهتمام عدة : ردات الفعل على الصدمة ؛ العون المتبادل ومحاولات الانقاذ الجماعية المتكونة عفويا ؛ ردات فعل السلطات والمؤسسات المحلية على هذه المواقف ، امكانيات المجتمع الكلي على تقديم نجدة ملحة اولا وتعويض جزئي أو شامل فيما بعد . ان النتائج مثيرة للاهتمام من جميع وجهات النظر . ان الاستعدادات التي يمكن ان يظهرها ، في كارثة ، الافراد أو الجماعات الذين عليهم أن يواجهوها ، تبدو مرتبطة بقدرتهم على تحديد الموقف وهضمه انطلاقا من تجربتهم السابقة . ويتعلق بقاء الجماعة ، في الان نفسه ، على درجة اندماجها ، على لحظة وسعة الكارثة ، وأيضا على الافعال الفردية الحاسمة في المراحل الاولى من الكارثة : تستطيع هذه الافعال ترجيح كفة الميزان نحو الهلع والنهب ، أو نحو التضامن والبطولة . وحسب المراقبين فان هذه الامكانية الثانية هي الاكثر ترددا .

ويبدو ان الروابط بين الجماعات التي تعرضت لكارثة والمجتمعات الشاملة التي تشكل هذه الجماعات جزءا منها قد تغيرت جذريا. فبينما كان

---

(٦٠) Allen H. Barton, «Social Organization Under Strett: A Sociological View of Disaster Studies», Washington, D. C., National Academy of Sciences, National Research Council, 1963.

(٦١) George W. Baker et Dwight W. Chapman, eds., «Man and Society in Disaster», New York, Basic Books, 1962.

(٦٢) S. H. Prince, «Catastrophe and Social Change», New York, Columbia University Press, 1920.

المجتمع الكلي في السابق يكتفي بتخفيف بؤس الضحايا الشديد، يعتبر الان أنه من الطبيعي ترميم مجموع الخسائر المحدثة والبحث في اعادة تكوين البناء الاجتماعي للجماعة المنكوبة كليا وبالدرجة التي تسمح بها الظروف . هذا الشكل الواسع من المساعدة فرض نفسه بهدوء وبدون مجادلات كثيرة في المجتمعات المتطورة ، على اثر تحسين نظم الاتصال على الارجح .

ثقافة الفقر

ان الابحاث عن المستشفيات والكوارث هي مثل على امكانية رهط من المحققين المشتغلين على مسائل متعلقة بعضها ببعض ، عندما تدعمهم صناديق عامة وخاصة وفيرة .

ولكن عمل أوسكار لويس حول حضارة الفقر(٦٣) يبرهن أن الباحث المعزول لم يمت . ففي « **خمس عائلات** » يصف خمس عائلات من مكسيكو تنتمي الى الطبقة السفلى . والتاريخ الاكثر تطورا لاحدى هذه العائلات مقدم في « **أولاد سانشيز** » . وهناك عملان لاحقان للمؤلف نفسه يستعملان تقنيات متشابهة . خصصا لحياة فلاح مكسيكي ولوقائع عائلة عاهرات بورتوريكيات .

« **أولاد سانشيز** » دراسة منشورة عام ١٩٦٣ ، وهي نتيجة أربع سنوات من الملاحظة والمقابلات العديدة مع عائلة مكسيكية فقيرة . وقد عرف الكتاب نجاحا فوريا . كما حيا بعض النقاد ، في هذا العمل . المثال الاول لنوع أدبي جديد ، يعرف كيف يجمع بين جاذبية القصة الواقعية والقيمة المعلوماتية للتحقيق السوسيولوجي .

لقد تم الحصول على السير الذاتية لاعضاء عائلة سانشيز بواسطة مقابلات متكررة ، مسجلة على آلة تسجيل ، اعيد نقلها حرفيا ونشرت مثلما هي ؛ والاصوات المسجلة تتعاقب بحيث ان كل علاقة ضمن العائلة يعاد معايشتها وتقوّم ، باستقلالية ، من قبل عضوي العائلة المعنيين

---

(٦٣) Oscar Lewis, Five Families : Mexican Case Studies in the Culture of Poverty, New York, Science Editions, 1962, 1959 ; les Enfants de Sanchez, Autobiographie d'une famille mexicaine, Gallimard, 1963. Pedro Martinez, Gallimard, 1966, La Vida. Une famille portoricaine dans une culture de la pauvreté, Gallimard, 1969.

وبحيث تقدم الاحداث المهمة من مختلف وجهات النظر . وهذا ما كان يسمى أحيانا تقنية **راشومون** ، وهو الفيلم الياباني الذي قدم أربع روايات مختلفة عن مهاجمة زوج من المسافرين من قبل قطاع الطرق . هذه التقنية المستعملة من قبل لويس تجعل القارىء يتوهم معرفة عائلة سانشيز ومحيطها ؛ كما انها تنتج ذات تأثير الرواية ، بالرغم من أن الاشخاص واقعيين ويصفون ، بقدر ما يستطيعون من الدقة ، الاحداث التي حصلت لهم .

ان لمؤلفات لويس الاربعة موضوع أساسي يكمن في تأكيد وجود الثقافة ذاتها للفقر ، سواء لدى الجماهير الفلاحية في البلدان المتخلفة أم في أكواخ الصفيح في الضواحي المدينية والريفية في البلدان المتقدمة صناعيا ، ثقافة تتجاوز ، بالتالي ، الفروقات الاقليمية والوطنية كما تتجاوز المواجهة بين المدينة والريف ايضا . لقد ظهرت « أولاد سانشيز » في اللحظة التي كان يعاد اكتشاف الفقر معها في الولايات المتحدة ، وخاصة فقر سود المدن الكبرى . لقد سمح الكتاب بامتلاك وعي حاد بالمشكلة التي طرحها وساهم في تحديدها السياسي .

ان المعطيات الاكثر تمييزا لثقافة الفقراء هي الصراع المستمر من اجل الحياة ، نقص الاستخدام ، البطالة ، الاجور المنخفضة ، تنوع الوظائف غير المتخصصة ، عمل الاولاد ، غياب الادخار ، نقص مزمن في المال السائل ، غياب احتياط الغذاء في البيوت ؛ عادة شراء كميات صغيرة من الطعام عدة مرات في اليوم وتدريجيا حسب الحاجات . وضع الممتلكات الشخصية تحت الرهن ، الاستلاف من المقرضين المحليين الذين يمارسون الربا الفاحش ، انظمة من التسليفات العفوية وغير الرسمية منظمة من قبل الجيران ، واستعمال الثياب الرثة والاثاث البالي .

ومن بين المميزات الاخرى الاجتماعية والنفسية ، ثمة العيش في الاحياء المكتظة بالسكان ، نقص الصداقة الحميمة ، روح التجمع ، تعاطي المسكرات ، اللجوء المتكرر للعنف لتسوية الخلافات ، العقوبات الجسدية للاولاد ، ضرب الزوجة ، المبادرة المبكرة بالحياة الجنسية ، الزواج الحر او الزواج بين الاقرباء ، ترك الزوجة والاولاد المتكرر نسبيا ، الميل نحو نظام الامومة واتحاد أكثر التحاما مع أعضاء العائلة من جهة الام ، سيطرة العائلة الاصلية ، الاستعداد القوي للسيطرة

والتشديد على التضامن العائلي ـ المثالي النادر البلوغ »(٦٤) .

ان غالبية هذه الصفات مألوفة لدى الذين درسوا شروط الحياة في الاحياء المعدمة من الولايات المتحدة . لقد أشار اليها توماس وزنانينكي بالنسبة للمهاجرين البولونيين في شيكاغو حوالى ١٩١٠ ، كما أشير اليها ، أيضا ، من قبل اللجنة الرئاسية المكلفة بالتحقيق حول الاضطرابات المدنية عندما وضعت جدولا بالاحياء المغلقة للسود في نيويورك ولوس أنجلوس عام ١٩٦٧ . يبقى تحديد ما اذا كانت هذه الصفات موجودة أيضا عند العائلات الاكثر حرمانا في المدن الاوروبية أو عند الفلاحين الهنود المفقرين . ويعدد لويس صفات أخرى خاصة بثقافة الفقر في مكسيكو ، عبادة الرجولة مثلا ، يبدو أنها ليست بنفس الدرجة من الشمولية .

ان أكثر ما يصفع في تقنية لويس ، هو انه لا يتوسع بالشروحات ولكنه يترك المواد التي يأتي بها ، تتكلم . وباستثناء مقدمة موجزة واشارة مهمة من الناشر ، فان « **أولاد سانشيز** » « كتبت » بكاملها بواسطة اشخاص البحث . يبقى معرفة ما اذا كانت هذه التقنية الواعدة ستستعمل من قبل باحثين آخرين .